أمير حسن جهل تن

رواية

طهران مدينة بلا سماء

ترجمة :سليم عبدالامير حمدان

رواية المدى

المـــــؤلــــــف : أمير حسن جهل تن
عنوان الكتـــاب : طهران، مدينة بلا سماء
المتــــــــرجم : سليم عبد الأمير حمدان
النــاشـــــــــر : المدى
الطبــعــة الأولى : ٢٠٠٨
الحقوق العربية محفوظة

Author: أمير حسن جهل تن
Title: تهران شهر بی آسمان
Translator: Seliem A. Hamdan
Al- Mada P.C.
First Edition : 2008
Arabic Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

أمير حسن چِهِل تن

طهران ، مدينة بلا سماء

ترجمة: سليم عبد الأمير حمدان

عن الراوي والرواية

ولد جِهِل تَنْ سنة ١٩٥٦، لعائلة متوسطة. تخرج من جامعة العلوم والصناعة في طهران، مهندسَ كهرباء.

نشر مجموعتين قصصيتين، وهما «صيغه» [زواج أو زوجة المتعة، أي الزواج المؤقت]، و«دخيل [لاجئ إلى أو محتمٍ بـ] على الشباك الفولاذي [الذي يغطي أضرحة الأئمة و الأولياء]»، و هو لا يزال طالباً في الجامعة، الأولى منهما سنة ١٩٧٦ و الثانية سنة ١٩٧٨.

بعد كفاح طويل و شاق مع الرقابة، وصلت أولى رواياته، «روضة القاسم» [قصة واقعة كربلاء منظومةً]، إلى المطبعة سنة ١٩٨٣، وطبعت، لكنها اعتقلت و بقيت سجينة ست عشرة سنة قبل أن تطلق السلطات سراحها!

أدى ذلك، بالطبع، إلى زيادة إقبال القراء على نتاجه، لكنه من جانب آخر فتح عيون الرقيب بشكل أوسع، فقد منع إعادة نشر مجموعتيه الأوليتين!

بدأت رواياته و مجموعاته القصصية تترى، حتى صدرت له حتى الآن: خمس مجموعات قصصية، ست روايات، و سيناريو لفيلم

سينمائي. ونشر عدداً من المقالات الفكرية في المجلات الأدبية الإيرانية و الصحف المعروفة في ألمانيا.

نشط في إعادة تأسيس «مركز كتّاب إيران»، مما عرّضه مدةً لخطر التصفية الجسدية من قبل دوائر «الأمن»!

اهتم في رواياته بشكل خاص بحياة المرأة في إيران، التي تعاني - شأنها شأن أختها في المجتمعات الإسلامية عموماً - من اضطهادين: اضطهاد المجتمع كما هي حال الرجل، واضطهاد الرجل لها بالذات!

*

مع أن الرواية التي أضعها اليوم بين أيدي القراء تعالج فصلاً مهماً من تاريخ المجتمع الإيراني الحديث، سياسياً، إلا أنها لم تغفل تحري واقع المرأة الإيرانية: جارية، وسيلة متعة، و هدف ظلم!

و قد اختار هو هذه الرواية للترجمة نافذةً يطل عليه منها القراء العرب على أدبه، و ذلك عندما سألته عن رأيه في ما يعتبره من نتاجه ممثلاً لهذا الأدب.

و لما كانت هذه الرواية تمتد - زمنياً - إلى قيام الثورة «الإسلامية» و تأسيس دولتها، فقد كان لا بد - كما هو متوقع تماماً - أن تخضع لقسوة الرقيب، الذي أصرَّ على حذف أقسام منها، على رغم أن الكاتب سبق أن مارس على قلمه رقابة ذاتية قاسية أثناء كتابتها. وقد تفضل مشكوراً بأن زودني _إضافة إلى الكتاب المطبوع عنها - بالنص الذي سبق أن قدمه للرقيب، قبل إعمال هذا مقصه فيه، و هو الذي اعتمدته في الترجمة.

كما لا بد من الإشارة هنا إلى أن الكاتب - الذي سبق أن أثبت

جدارته في استخدام لغة القصور الملكية في القرن التاسع عشر - استخدم في هذه الرواية لغة الأوباش و الفتوات، لا في الحوار فقط، بل حيثما تسرب السرد من ذهن بطل الرواية الرئيس أيضاً. و قد تركت في الترجمة إشارة وحيدة تذكّر بذلك، و هي إصراره على تسمية طهران بـ« طهرون ».

-١-

أنا مخلص لك أيها الأستاذ الفهيم . ها أهه!... أنت نفسك أيضاً منذ أن بنيت سويقاً نسيت أصحابك السابقين... لا...! لم أر الحاج حسن منذ وقت طويل. لم يعد يأتي إلى السونا أيضاً... وضعه ممتاز ممتاز!... هذه ناحية واحدة. كما أن عنده اربع مؤسسات تجارية. وقد ذهب الآن إلى بندر عباس[١] كي يجلب «بنز»[٢]... لا يا سيدي، لم تعد «مصلحة المستضعفين»[٣] تتفاهم معنا . في السابق كانوا يخبروننا قبل إعلان المزايدة كي نلقي نظرة على المواد ولكن الآن نسي هؤلاء أيضاً الأصول... كما قلت لك. أنت بالذات يجب أن تزخَّ في الأقل مليوناً أو مليونين... لا يمكن وحياتك... لا تولول بهذا القدر. تلك المعامل التي تملكتها بلاش بلاش... ماذا؟ إن هدمتها على بعضها وبعت أرضها خالية سيصير عندك أضعاف المال الذي دفعته فيها...لا يصير أبداً وحياتك. إنهم يتوقعون منا... والآن أيضاً هكذا. لو أن أولادنا يتراخون في الجبهة لكان الرفاق الحزبيون قد وصلوا إلى طهران...يعني أن علينا أن نمسك خلف الجبهة بإحكام ...كم دفعت تلك المرة؟ مئتين فقط ... لا يصير. فلأطمْئِن بالك : هذه الحرب هي في بدايتها ... ينبغي أن نبقي هذه الحرب ساخنة عشرين سنة . يجب أن تدفع في الأقل مليوناً... لو

أن جنابك لا تتظاهر بالشكوى والبكاء فهي ستصير جمعاً عشرين مليوناً. أدفع نصفه نقداً، وبالنصف الآخر من المقرر أن أشتري سيارة إسعاف وإثنتين أو ثلاثاً من سيارات تويوتا الـ Pick up... إن لم تتمكن غداً ينبغي أن توصلها إلى يدي حكماً بعد غد... يا علي.[٤]

وضع السماعة. كانت أعصار الصيف الطويلة ، لا سيما عندما لا تكون «غنچه» والأطفال في البيت، تدوخه تماماً . العياذ بالله من هذه الحرارة! الآن لا يعود ثمة فرق بين جو«زعفرانية»[٥] وهواء أدنى المدينة. كانت المدينة كلها جهنماً.

خلع بنطاله. وقميصه أيضاً. مسح يداً على انتفاخ بطنه و ذهب إلى أمام المرآة فجأة. وقع نظره على وشم العضدين. داخ ثم ركبه القلق مرة أخرى. كان قد تحقق، لا فائدة في الأمر. قالوا إنه لا يمكن إزالته بأي دواء. إلا بجراحة تجميلية، ترقيع جلد... لا، لن يتورط ورطة كهذه. طيب، وليفهموا... إنه لم يرتكب جريمة.

ما من أحد من الناس تخلو إضبارته من بقعة سوداء أوبقعتين. حقاً إن هذه الملة قد نجت بالثورة. تغير الجميع. شكراً لله!

مرة أخرى تذكر الحرّ. هوَّى بيده وسحب سرواله الداخلي إلى أعلى. مرة أخرى كان نازلاً إلى الركبتين. كانت غنچه قد خاطته له من چادرها القديم. لم يكن بالقديم جداً. كان «كرامت» قد رأى أنها لفّت ملابس الأطفال القديمة في داخله كي تعطيها لـ «كوكب»، خادمتهم، كي تأخذها لأطفالها. قال كرامت: أتعطينها هذا أيضا كي تأخذه؟ وكانت غنچه قد قالت : ما عدت أريده. و قال كرامت : لكن هذا جديد جديد، وقالت غنچه: ما عدت أحبه. قال كرامت: خيطي لي إذن منه سروالين أو

ثلاثة داخلية. كان دائماً يقول لغنچه لا أحب هذه السراويل الداخلية التي يلبسها الرجال. خيطي لي أنت. وخيطيها عريضه هفهافة أيضاً كي يتخلل الهواء خصيتي فيها.

قال: جيدٌ أن أذهب لأفتح النافورات وأبلل الجنائن بخرطوم الماء كي أبرد قليلاً.

عبَر سجادات الحرير. ذهب إلى الإيوان وراح يحدق إلى البستان. من بين الأغصان الملتفة الخضراء كانت رطوبة باردة تأتي نحوه. أحس أن الأغصان تهتز أو مثلاً... أن الجنرال إشراقي كان يجلس على كنبة أرجوحة وثمة حورية من حوريات الجنة قد قطفت حبة كمثرى وهي تضعها في فمه. فجأة استولى عليه الخوف. عسى ألا يعود أنصار الطواغيت؟ نفض رأسه و عنقه رعباً . و طرد شيئاً موهوماً من أمام ناظريه. ثم ضحك على فكره وتصوراته. حتى إنه مد يداً على فخذه. أين هم الآن! فتح العينين نحو السماء. صب أعوان الشاه اللعين دم الشعب عمراً كاملاً في الزجاجات، و تجسسوا للأجانب ما استطاعوا وها هم الآن هربوا إلى أمريكا و إلى هذا الجانب وذاك. ثم مر صف المفسدين في الأرض، المنافقين[٦] و الشيوعيين، مقابله من مجاز ضيق وكان هو هناك في الأعلى، و سوط التعزير في قبضته، يداه في حزامه، ينظر إلى أقدامهم المتورمة.

لكي يتخلص من كابوس الأقدام المتورمة، تذكر طلا التي كانت تقول له:

أترى هذا السفرجل الياباني؟ لقد جلبوه لي من قصر نياوران[٧] ... وهذا الصبّار... هذا الذي له زهر بنفسجي، هذا أيضاً زرعته أنا. وذلك

السوسن الطويل ، برتقالي اللون، كان في الجنائن عندما اشتريت هذا المكان. قال لي الجنرال إشراقي إن جَنَتَهُ جلبوها له من فرنسا.

دفعت طلا الشعر إلى وراء أذنيها. كان الزغب الخفيف والأشقر على جانبي الأذنين يلمع في الشمس. استدارت؛ قالت: تعال... تعال نرجع معاً. ما عادت هذه البلاد تنفعنا.

تقدم كرامت إلى أمام محدقاً إلى الزهور. شم رائحة عطر طلا، كانت تطرد العطور الأخرى و تأتي من حاشية الجنينة.

أزال باليد عرقَ ما تحت الحنجرة. لم يكن يستطيع أن يُشغِّل مبردة الهواء. ما أن يضربه الهواء حتى يجف عرقه: تؤلمه عظامه، و ما كان ليستريح أسبوعاً.

رحم الله أيام الشباب! لم يكن يفهم معنى البرد قط. كان كل وقت بالنسبة له ربيعاً، صيفاً. عندما كانوا يذهبون جماعة إلى وراء القلعة كان يتعرى، و قد انتقع عرقاً، ما أن يصل و قبل أن يسأل عن حال مشدي[٨] ، يقفزإلى الحوض، الحوض الذي كان ماؤه بارداً كالبرَد، الذي لم يكن يمكن إبقاء اليد داخله. حتى لم يكن ممكناً عض البطيخة التي يضعها مشدي في الليلة السابقة في مغسل الرجل[٩] منه. و عندئذ كان صوت مشدي المرتجف يمر في باله:

- أتذكر يا كرامت خان[١٠] ذلك اليوم؟ لن أسامحك. كنت أحترق أسبوعاً كاملاً كالكانون. لم أشفَ، من يومها، منذ وقت ذات الرئة ذاك. في الشتاء التالي كان قد قضي عليّ. دمي في عنقك... انجرّت زوجتي إلى الخدمة. ذهب بمصير ابنتي، التي تشبه باقة ورد، إلى بيت العار. لن أسامحك. في هذه الدنيا ذاتها ستدفع الثمن!

كان الشيخ الشكّاء الهزيل قد أتلع رأسه من القبر. كتفاه الهزيلتان خارج التراب. تمتد العروق الخضراء من صدغيه نحو الحنجرة. ينظر إليه من وراء الغبار المتطاير من الأرض و الزمان إلى الفضاء .

أرجف رأسه. أبعد بيده عن عينيه الظلال الغامضة التي كأنها كانت تأتي نحوه من بين أغصان البستان المتشابكة. من دون تفكير مدّ يداً إلى الفخذ. قال : لا أعرف إلا أنه ينبغي أن نسلم أنفسنا كي نُركب! تلك المرة سلّمناها فنجَوْنا، هذه المرة أيضاً يجب أن نسلمها للركوب.

و كأنما بهذا الاعتراف الصميمي إياه تذكر ذلك اليوم البعيد:

من وسط الحوض بالذات عندما كان لهاث أنفاسه يموِّج الماء والماء يفور من ثقوب بدنه السبعة مثل حوت أخرج رأسه للتو من الماء، أطلق صوته :

- يا مشدي ضع الكباب!

و مرة أخرى طفح ماء الحوض. رفع مشدي المئزر عن كتفه، حك وجهه محدقاً إلى الأرض ثم - مثل كل الأوقات التي لم يكن عنده فيها لمخاطبه جواب - مسح، بلا هدف، وجه الطاولة التي كانت عند يده، وقال لنفسه بضع كلمات مدردماً.

قفز كرامت إلى أعلى ثانية و غاص. بلل الماء الأطراف، و تطاير الرشاش إلى الأنحاء بحيث إنَّ إحدى زجاجات المقهى اكتست بتصاوير وخفقت عصافير الكناري، فزعة، وراء القضبان.

وضع كرامت قدمه في مغسل الأرجل. غاض ماء الحوض فجأة. رفع مشدي مئزرين جافين أو ثلاثة عن حافة الكرسي وتقدم راكضاً. استدار كرامت نصف دورة، أنزل يده ومن حافة القوس إياها تبوَّل بقوس طويل

إلى الجنينة التي تبعد مترين أو ثلاثة، ثم أخذ المئزر وشده حول وسطه ، و ألقى مشدي ، بنفسه، الآخر على كتفيه.

كان صوت السكاكين عالياً. أخرج الرفاق السكاكين وراحوا ، واقفين تحت دُلب الجنينة، يطعنون قشور الجوز الفج الذي جمعوه في الطريق من تحت الأشجار. كان الجميع يحدُّون أسماعهم.

لف كرامت المأزر على الرأس و الكتف وقال: «حسن؟...هل الكباب جاهز؟».

لم يكن لمشدي في وجهه لون. كان ينظر كمن به حَوَل إلى عمود الإيوان الخشبي بدلاً من كرامت. كانت أرنبة أنفه ترتجف. خفض رأسه وقال: «يا كرامت خان... أنت تعرف أن عندي دائماً لحماً مدقَّقاً جاهزاً. أحدث مرة أنك جئت و لم تكن نار منقلي حاضرة؟... لكن...

كان صوته يرتجف. كان حسن فرفره ، أحمد چكمه إي و رضا چلچله يقفون منتظرين؛ المطوى في يد و الجوز في اليد الأخرى، ويصفرون خافتاً بأعين وسنى و قبعات مائلة. كانت ظليلة الإيوان وألواح الباحة الخشب و الموائد المتداعية، وحتى حجرة المقهى وكل شيء آخر مما هو هنا وهناك كأنه قد انتفخ تحت ضغط فحولة كرامت. كان شيء ثقيل في الهواء يدفع نفَس الشيخ إلى وراء. ما زال كرامت يمسح بالمئزر رأسه و أذنيه. كان حاجباه المتفرقان، و النظرة الصافنة على الأرض، و التقطيب المرتسم على جبينه يزيد من خوف الشيخ و ارتباكه . ما كان ليسمع«لا» من أي شخص. وضع يده على فخذه ، رفع أحد حاجبيه إلى أعلى و قال: «طيب، يعني ماذا؟».

- يد الله هذا عديم التربية عسى أن توضع جنازته على لوح المغتسل. تدري أنه يجلب لي اللحم دائماً من گُلاب دَرّه.

- لتطفح روحك. إن جواب كلامي كلمة واحدة فقط.

فقال مشدي بارتجاف الصوت ذاك إياه: خجلان منك يا كرامت خان!

رفع كرامت مرة أخرى أحد حاجبيه: - عندك نصف ساعة وقت... إما كباب طلي أو أنزع ريش كل كناریاتك، و هي حية، أمام عينيك، وأشويها فآكلها.

مد مشدي، مرتعباً، قدماً إلى وراء. أدار رأسه و نظر إلى قفص الكناري. كما لو أن كل دم بدنه قفز إلى وجهه. كانت لحظة واحدة أخرى كافية لأن تخرج عيناه الوامضتان من حدقتيهما. تقدم إلى أمام. قال:

- لكن يا أيها الكافر من أين...

قفز كرامت عن مكانه كالنابض. صرخ معربداً بحيث أن كل العصافير التي كانت على الأشجار في الأنحاء طارت. قال: - أجعل أختك و أمك الآن واحدة![1]

لم يترك فرصة. تشبث بقلاّب حزام الشيخ و اقتلعه، بحركة واحدة، من الأرض. و قبل أن يتحرك الصحاب ألقى به في الحوض. انتقعت الباحة ماء.

صرخ مشدي و غاص تحت الماء.

كان الشيخ يخفق كالدجاجة. ظل يغوص و يرتفع، وأوصل بشكل ما نفسه إلى حافة الحوض. و قد وضع كرامت قدماً على الكتف السمنتية للحوض، و كان في كل مرة يرفس رأس مشدي بقدمه الأخرى. كان مشدي ينشمر إلى وسط الحوض و يغوص تحت الماء مرة أخرى. ولكونه دائخاً من الضربات في مؤخر رأسه، فقد شرب ما استطاع . لم يعد حتى يبكي. عندما كان يُخرج رأسه من الماء لم تكن توجد فرصة

إلى الرفسة الثانية إلا أن يرى الناس رعب الموت النافر من أعماق عينيه.

كان الصحاب يتوسلون إليه. رهنوا لحاهم و شواربهم و كل ما كانوا يملكون. قال حسن فرفره إي: يا آقا كرامت، قسماً برجولتك إن هذا المسكين غير مقصر!

هز كرامت، بصراخ إثر صراخ ,كل أموات مشدي في قبورهم. نظر لحظة بعينين أعماهما الدم إلى الصحاب، ثم سابّاً بإقذاع بصوت خفيض، أولى الحوض ظهره: لا بد من تأديبه، ابن الحرام هذا.

قفز إلى فوق الإيوان و ركل الكراسي. ثم حدق - و يداه في حزامه ، لاهثاً وغاضباً- إلى قفص الكناري. حتى لو أشعل المقهى كله ما كان أحد ليجرؤ على أن ينفخ هواء رطباً على خصيتيه.

رفع يديه إلى أعلى، استدار. عندما كان يتحرك كان يقطع الهواء. كما لو أن حركاته كان لها هيكل من حديد و إسمنت، إلى هذا الحد كانت قوية. كان هو يمضي و لكن حركاته تبقى في الهواء.

عندما خرج مشدي بقي ساعة كاملة يرتجف تحت الشمس. وفي بعض الأحيان كان يسيطر بالقوة على ارتعاش فكه، و قبل أن يدعو دعوة كاملة لأموات كرامت استولت الرجفة على كل بدنه مرة أخرى. كان أحمد چكمه إي يمنّ عليه بمراعاة كرامت للأصول و يقول: «مهما دعوت فهو قليل».

لم تكن تعوزه المعرفة و الفتوة، والجميع يعرف ذلك، لم يكن قد مر وقت طويل عندما أراد أن يؤدب واحدة من تينك النساء المنافقات[١٢]، أوعز بأن يسوطوها أمام أنظار الجميع، إلا أن المرأة لم تخضع، لم تتمدد و لم ترفع ساقيها إلى أعلى.

- قلت نامي!

بعثت صرخةُ الرجل الرجفة في أوصال الفتاة. قالت: «إنني لا أنام مقابل أي رجل».

طيب، إن الفتاة تقول الحق.«أين ولّت غيرتك يا رجل؟».

سامحها.

كان لا يزال فتى. قرع جزمته بالسوط ونظر إلى الأرض. كانت امرأة وقد قالت لب الكلام. علك زاوية شفته و أولاها ظهره. ركض الأتباع وراءه.

في ذلك اليوم في حديقة مشدي طيلة بقاء كرامت هناك لم يسقط الشتم المقذع من شفتيه، وحصل أن هجم مرتين أو ثلاثاً نحو مشدي فأمسك الصحاب في كل مرة سترته وكتفه، يقدمون أنفسهم فدى وصدقة عن هيكله، و يسحبونه إلى وراء.

ولكن كانت ثمة حديقة أخرى ماؤها ببرودة ماء حوض مشدي...!

كانا يتقافزان كلاهما معاً في الماء، يا للصفاء! تمد بتول، التي ليس عليها غير سروال داخلي، يدها فتتناول من بين فواكه الفصل المتنوعة، الملقاة في مغسل الأرجل، شيئاً و تعض منه عضة ثم تمسكه أمام فم كرامت ,و يضع كرامت أسنانه في موقع أسنان بتول بولع.

في «آب مقصود بيگ» كان لبتول جنينة. عندما يصل إلى هناك، كان حوض الماء الجاري كدمع العين، وسط سياج أشجار الحور ، يوسوسه. عندما كان يذهب إلى هناك، كانت بتول تخلي الحديقة من أجله. كانت تحبه. كانت تحبه حقاً، وهذه أول امرأة مستعدة لأن تقدم حياتها مقابل أن يكون كرامت لها.

أشجار التوت، جنبات الورد الأحمر، شجيرات البقس متحدة الطول وحائط معدني يحمل تخطيطات طيور ونجوم، وحوض إسمنتي صبغ باللون الأزرق و امرأة!

عندما كانت بتول تغمض عينيها و تترك الشعر طليقاً على الماء كان جبين كرامت يلتهب و كأن كل روحه تجمعت في نقطة واحدة، في هذه النقطة بالذات. بهزة رأس كان ينثر الشتائم المقذعة على نفسه وعلى آباء بتول و أجدادها. كان يغطس و على أثر يد بتول يغمس قبضته في الماء البارد. و أخيراً يسحبها إلى تحت الماء.

كانت بتول تهرب. كالسمك تنزلق من بين يدي كرامت وتخرج. كانت من الخفة تلف نفسها و تلويها بمهارة، بحيث تبدو وكأنْ لا عظم في جسدها.

عندما كانا يحسان برداً يحتضن أحدهما الآخر بإحكام ، من الإحكام بحيث يصير فصلهما عن بعضهما أمراً مستحيلاً.

كانت بتول ترتجف مرة أخرى، و لم يكن هذا من البرد. يرفعها كرامت على يديه و يخرج، بلا صوت، كما لو كان يخطو فوق قطن، من الحوض. كما لو كان يأخذ طفلاً إلى الفراش.

كم كان ذلك عذباً. عندما تذكر حوض الماء البارد وبتول أحس حرارة. لم يكن لهذه الأصياف من نهاية. كان الماضي كله ربيعاً و صيفاً. أية لذة!

مرة أخرى عاد ذهنه إلى الماضي، قبل ذلك... أكثر...

و الآن يشم رائحة بنجر مسلوق: رائحة بنجر ساخن وبخار حلو يتصاعد من الهالة المدورة و المنيرة لعجلة بائع البنجر المسلوق. كان الجو

بارداً. من الخمارة التي في الجوار يصدر صوت موسيقى. كانت الحوانيت مغلقة كلها. كانت أنوار مصابيح الضغط تبدو لناظريه، مثل مؤخرة صغيرة لبيت ما، مأمونة. ألصق نفسه بالجدار؛ لم يكن يحمَى. ضم الأصابع ووضعها في فمه. ضغط الأسنان. أحس ملوحة الدم. كان يلتذ. مص الأصابع. أصابه ضعف. خرج الرقيب الإنكليزي من وراء بخار البنجر ومر من الضياء البارد لمصباح الضغط. كان ينظر إليه و سحب ، و هو على تلك الحال، من جيبه ورقة خمسة ريالات[١٢]. كان ضغط الكابوس الذي مر قبل خمس و أربعين سنة في اليقظة، من السرعة بحيث أنها أعادت كرامت إلى «الآن» ,إلى هذه النقطة الثقيلة إياها. بحلق كرامت عينيه وسحب الساقين السمينين إلى أمام. بين أشجار«زعفرانية». صافناً على الأغصان الطويلة و الكثة للسرو الفنلندي، قال مدردماً: سأحرقك!

كان شيء يضغط على صدره. تشبث بياقة قميص داخلي و شدها إلى أمام بكل القوة التي كانت في أصابعه. قال: سأحرقكم.

مر صف السجناء من أمامه معصوبي العيون، من دون أن يروا، يضع كل منهم يده على كتف الذي أمامه، مروا في صف طويل أمام عينيه. تمطى وجه كرامت الغاضب في ضحكة عصبية كالنعرة على الجانبين. وضع يداً على فخذه. قال: صحيح أنني جئت من هناك ، ولكنني على أية حال وصلت إلى هنا. ثم حدق إلى مكان بعيد. كان صميم فؤاده يقول إن هذا الهدوء مؤقت. لم يكن ذلك الماضي ماضيه؛ كان يخشى دائماً أن يعود ثانية.

في ليالي الجمعة كانت تلك الحديقة ذات الألف متر، التي يقوم في

وسطها مبنى صغير مرتب، تصير بكاملها تحت تصرف كرامت. وكان يجلب حاكيه أيضاً و تشتري بتول كل أسطوانات «مهْوَش» [14] واحدة فواحدة. المقطوعة ؛ كانت لها الألاعيب نفسها. لو كانت عليها رقاقة لحم أو رقاقتين لما كانت تختلف عنها قيد شعرة.

- كلي الأ كباد! يا خبزاً محلّى!

لم يكن لها بطن. كان كرامت يضع الكباب في حلقها، من دون فائدة. تقيأت مرة أو إثنتين على السفرة بالذات. شغّل كرامت الحزام عليها. أجبرها أن تأكل ثانية كل ما قاءته. و في كل مرة كانت - لكي تفتح التقطيب عن جبين كرامت - تنهض، تغسل وجهها، و تضع قبعة كرامت على مفرقها:

- أهذه العجيزة معوجة؟[15]

كان كرامت يقول: رقاقة لحم أو إثنتين فقط، هذا فقط أيتها اللئيمة. أشكر دينك.

كانت بتول لا تزال تحت جناحه عندما توفيت «مهوش»، مغنية المدينة المعروفة. في ليلة «سبعته» ها[16] ذهبا كلاهما إلى «ابن بابويه»[17]. منذ الصباح الباكر كان الجميع ينزلون من

«شوش»[18]، و كلهم يمسك زجاجات الخمس «سير» ات[19]، يركبون سيارات الحمل الصغيرة و يذهبون إلى ابن بابويه. هنيئاً لها! كان لموتها صفاء حياتها. و لكن موت هذا العهد كله عويل و ولولة، كله تعزيات، كله...

في الليل عاد العيال. وضعت غنچه كيس السندويچ على مائدة الصالون. قالت: اصعدوا. سأجيئ الآن فأضع لكم كارتوناً في القيديو لكي تتفرجوا.

صعدت سمية و ياسر السلالم راكضين. وركض ميثم متعثراً صاخباً وراءهما وسقط عند السلالم أرضاً و انفتل. رفعته غنچه عن الأرض، أسلمته إلى حضن كوكب وقالت: سيغلبه النوم الآن فقط. حركته المزعجة أيضاً بسبب هذا. خذيه أنيميه.

كان كرامت متمدداً. تركت غنچه چادرها و مقنعتها في زاوية الغرفة وجلست على حافة السرير.

قالت: في سويق «تجريش»[٢٠] رأيت بلوزة. فقط غالية قليلاً.

كان كرامت يبحث بعين مغمضة عن يد المرأة.

قالت غنچه: - قل كم! ها؟

حرك كرامت يده فوق فقرات ظهر المرأة.

قالت غنچه: - ثمان وثلاثون ألف تومان[٢١]. غالية؟ ها؟

كانت يد كرامت قد بلغت الأضلاع الآن وراحت تستدير.

قالت غنچه: - و على صدرها تطريز بالأحجار. ثم أن هذه المنطقة منها...

قال كرامت: - أشتريها لك!

أدار يد المرأة. سحبها إلى أسفل.

غصت غنچه بالضحك. ابتعد كرامت مسافة و نظر إليها. قالت غنچه بخبث:

- من تكون بتول العزيزة هذه؟

ارتجف كرامت. تصور أن بمقدور غنچه أن تقرأ فكره. تمالك نفسه. وقال:

- بتول العزيزة؟

قالت غنچه: - كنت معي و لكن فكرك في أماكن أخرى...

و رفعت يدها درجة درجة. نهضت فجلست. قالت: - ألست جميلة؟

لم تكن المرأة تستحي. وهو نائم على ذلك النحو دغدغت ضلوعه.

قالت غنچه: - هيا قل!

و صبّت الشعر من هذا الجانب إلى ذاك. كانت هذه طلا التي تنظر إليه، من الشق ما بين جفونها نصف النائمة، بعينها الوسنى. كانت تعرف شغلها. لم تكن غنچه تعرف شيئاً كثيراً عن هذه الأمور. ولم يكن كرامت أيضاً يجرئها. يجب أن يكون للمرأة الصالحة الجيدة حجب وحياء.

- لوكنتَ رجلاً أزحه عن طريقي . إنني أدفع خوة(*) لجناب العقيد هذا. أتفهم؟ خوة!

ثم ركضت على السلالم خلفه. كانت تذرف الدمع كُرةً كرة. قرعت قبضة مضمومة على ظهر الرجل العريض. استدار كرامت. صرخت طلا في وجه الرجل :

---

* - خوة أو خاوة : أي أتاوة . (الناشر)

- لو كانت عندك غيرة...

رفع كرامت يده إلى أعلى. خطفت المرأة وجهها.

- لو قال أحد آخر هذا الكلام، لكنت أعرف ما أفعل به.

رفعت غنچه كتفيها بلا اهتمام. نزلت عن السرير.

- السيد في سير وسفر لحاله... أخذت لك سندويچاً . تأكل؟

و خرجت من الغرفة. نظر كرامت إلى السقف. قال مدردماً: بتول عزيزتي!

كان شعبون بي مخ[٢٢] هو من عرَّفه المرأة. كان لها سبع عشرة سنة فقط. لكنها كانت خادماً. كانت قد خرجت منذ نحو أسبوعين أو ثلاثة من دار التأديب. كانت تتسكع بلا ضابط و لا رادع من دون عمل وبلا حياء. ترفع شعرها المدهون الكث إلى أعلى. يتجعد السالفان الطويلان ويغطيان الأذنين. كان بدنها قد اكتسب رائحة الرجال. ما أن ترى امرأة حتى تلتهب.

- هذه أرْتب، تقدمة لك!

كان الوقت وقت انطباخ التوت[٢٣]. ذهبوا إلى «فرح زاد»[٢٤] كي يأكلوا التوت. كان يقف وسط ميدان صغير جنب «عزيز القرقي» و«حسن ديناميت»، ويرمي ثلاثتهم مطواة، عن بعد سبعة أمتار أو ثمانية ، على شجرة حفر عليها قلب...

كانت المطوى تنتقل من يد إلى يد. كرامت يصيب الهدف دائماً. كان شعبون يمر من هناك مع صبيانه؛ رأى كيف أن فتى، ما زال أعلى شفته أخضر، يحرر - من هذه اليد وقبل أن يكون حوَّلها إلى اليد الأخرى - بحركة واحدة، الشفرة ويرمي نحو الهدف دقيقاً حاذقاً.

رآه فأحبه. و عند ذاك أخرج مطواة من جيبه . وضعها في يد كرامت وقال: هذه أكثر انتظاماً...

نظر كرامت إلى صدر الرجل العريض. على تلك الاستقامة وذلك الإحكام اللذين كان يقف بهما، كأنه يعد الأرض و السماء خفيفتين ذليلتين... كان إلى جانبه وحوله أربعة فتوات أو خمسة، على معاصمهم مناديل ذوات مربعات يزدية [٢٥]، و على صدورهم تصاوير بنفسجية لنسوة و تنانين، وينقِّلون جاكتتاهم السوداء[٢٦] على سواعدهم، يتململون.

فتح كرامت قبضته. كان على قبضة السكين الصدفية تخطيط لجذع امرأة، عارية. فوق رأسها كانت سعفة نخل مثل تاج بعرض صدفة، وفوقها تربيع القمر و شرارة نجمة أو نجمتين.

كان لا يعرف من شعبون حتى ذلك الحين غير أنه سمع اسمه بوصفه زهرة فتوات طهرون. قبَّل يد شعبون و في اليوم التالي أجلسه أحد صبيانه القادم من وراء الگمرك على المقعد الخلفي لدراجته النارية وأخذه إلى «سَنْگَلَج»، حيث بيت شعبون.

في الباحة خلع الـ «گِيْوَه»[٢٧] و جلس على السرير. كان قطيع، من صبيان حمقى و تافهين ممن يتباهون بأشكالهم و مظاهرهم، متراكباً على بعضه. كان كرامت يقشر التفاح، يأكل «پا درازي»[٢٨]، يشرب الشربات، كما لوأنه جاء إلى عرس.

ثم أخذوه إلى عند شعبون الذي سمح له - أمام أعين الحشد الجالسين حول الغرفة - بأن يقبِّل كتفه.

لم يكن اللقاء الأول قد امتد إلى الثاني عندما رفع شعبون الكلفة معه. كان الجميع قد ذهبوا، نهض كرامت.

- فرصت؟

- أرفع الزحمة.

أمسك شعبون بيده و أجلسه. جلبوا صينية و منقلاً. نصب شعبون بنفسه السفرة له. أعطاه بيده كأس العرق. وضع حُقَّة[29] الوافور[30] على شفته و نادى على ضعيفة ما من وراء الستار: پري!

انقطع نفَس كرامت. أخذت العينان تدوران متسعتين أكثر منهما في أي وقت.

كان الهواء قليلاً. يلفظ سريعاً أكثر مما يبتلع. و يرتجف جدارا المنخرين مثل أنبوبي بخار من جريان هواء ساخن رطب. بدنه كله يحترق.

قال شعبون بنغمة مؤذية:

- لماذا عرقت على هذا النحو؟...بعد هذا أوصيتُ بأن تذهب عندها متى ما أحببت. أنت تعرف القلعة؟[31]

كانت ذكرى المرأة الأولى تذكِّره على الدوام بشيء يجعل أخلاقه لا تطاق. كان اسم المرأة

«پري» و بعد رواحها...

قال شعبون: الآن يجب أن أحاسبك أنا.

شم رائحة لحم محروق، ورنَّ صوت نعراته في أذنه. قال شعبون: أكويك حتى لا تنسى أبداً!

ضغطت الماسكة. نعر كرامت. ملأت رائحة لحم كفل كرامت المحترق الغرفة؛ كان كرامت ينام على صدره، التفت لحظة ورأى خلفه: نظر شعبون إليه - وعلى شفته ابتسامة سخرية- كالعُقاب وراح يحك صدره

مخشخشاً. لم تكن لدى كرامت جرأة الاعتراض. كان قد سمع قبلاً بالطبع أن شعبون يميل للواطة.

كانت غنچه تقف عند رأسه و في إحدى يديها علبة مرطب و في الأخرى سندويچة. وضع كرامت رأسه على الوسادة. قال: لا آكل.

قالت غنچه: - حالك ليست طيبة. أتريد أن أخبر الدكتور بهادري؟

قال كرامت: - لا. ما بي شيء. متعب، فقط.

حركت غنچه علبة المرطّب في الهواء: لكثرة ما تشتغل. وهذا العمل المحطم للأعصاب أيضاً. اترك هذه المخروبة. أتدري كم من آهات الناس و أنينهم وراء ظهورنا؟ هؤلاء الشبان الذين تحت يدك في السجن، عندهم آباء و أمهات وأقارب!

حرك كرامت بنفاد صبر يده في الهواء. قال:

- ما أصنع؟ لا يمكن فعل شيء في هذا الصدد.

وضعت غنچه السندويچ و علبة المرطب على الكومودينو جنب مصباح النوم، و زمّت شفتيها بسخط. هزت رأسها قليلاً، و خرجت من الغرفة.

مرة أخرى هجم الماضي: قفز عن الدرابزون ومدّ قدماً إلى الباحة. كانت بتول في الإيوان. عندما رأت هيئته المخيفة خفقت كالطير إلى الداخل و أقفلت الباب من الداخل. لم يكن ثمة أثر من تلك البسمة المائلة الدائمية، وكان هذا ما بعث الرعب في قلب بتول.

فتح كرامت الباب سريعاً بالقوة. كانت طاسة الفاكهة مقلوبة، ومنقل النار لا يزال حاراً، والوسائد متناثرة، بأوجهها الوسخة، حول المنقل. كما لو أن ضيوفها ذهبوا عند دخول كرامت. ضرب كرامت

برؤوس أصابع قدمه تحت المنقل . تطاير تراب الفحم أحمر و رمادياً على السجادة.

عربد كرامت : تلففي يا حوري... حول نفسك دوري!

لم تكن المرأة تسمع. كانت قد ألصقت ، مغمضة العينين، لوح ظهرها بالجدار وراحت تصرخ.

نعر كرامت: - اكتمي صوتك يا صخّابة!

و مد يده إلى جيبه فسحب مسبحته اليُسْر[٣٢]: - أنت مع تلك المُرَيْئة مليحه ، معاشرة الأفواج، تتساحقين... إنني أكرهك أصلاً.

انقطع للتو صراخ بتول. وضعت ذيلها بين ساقيها [٣٣] و بدأت ترتجف. كما لو كان كرامت يبحث عن شيء، ثم سحب بعدئذ المطوى. بضغط يده قفزت الشفرة خارجة. بعد لحظة كانت بتول قد تداعت ساقطة.

نظر كرامت إلى المرأة من رأسها إلى قدمها. ألقى بصقة على السجادة، مسح فمه بكم الجاكتة و أطبق الشفرة. قال: إن جئتُ ثانية لن أطبقها حتى تدمى!

رفع يده إلى أعلى. بعد كل تلك السنوات كما لو أن السكين كانت لا تزال في قبضته. حتى أنه رأى الدم يقطر من ذؤابة الشفرة. لو كانت عنده هذه المطوى بضع سنوات أسبق؟!... كان الرقيب الإنكليزي ينظر إليه. بعد أن كان فك أزرار بنطاله و بال في ظلمة حاشية الشارع عند أدنى شجرة، رجع الآن و راح ينظر إلى كرامت.

بنجر ساخن! مرة أخرى ضعف قلبه. لم يكن قد أكل شيئاً ذلك اليوم منذ الصباح. كان الجريان الذي لا يتوقف لحلقات البخار المتصاعد من

صينية البنجر و من بين دائرة نور الفانوس الوهاج إلى الهواء يُرعش جداري أنفه.

الجوع! كان يخاف على الدوام. لقد خاف دوماً. يخاف أن يبقى جائعاً مرة أخرى. كان هذا الكابوس يلازم ذلك التصوير على الدوام. يدق الإنكليزي يداً بجانب يد أخرى مضمومة و يتقدم مبتسماً.

كم كانت سنه؟ لا يتذكر. لكن حرقة العمل و وجعه ما زال يذكرهما. كان قد أنزل بنطلون كرامت بحركة واحدة خاطفة إلى أسفل ورفع كرامت ذاته عن أرض الزقاق. كان في العاشرة أو الثانية عشرة وربما كانت هذه آخر مرة. تكدرت نظرته. لم يعد يذكر شيئاً. لم يكن يريد أن يتذكر. كان قد جرى في الزقاق المعتم. بكى، وقال صارخاً: – ننه![٢٤]

كانت سنوات طوال قد مضت من دون أن ينطق هذه الكلمة و في ذلك الوقت تركت امرأة يدين مغضنتين عند عتبة الباب و أقامت ظهرها. كان شعر مصبوغ بالحناء قد نفر من تحت حاشية الـ «چارقد»[٢٥]. كأنما غسلت قبل لحظة فقط الوجه الرقيق المنير. كان طفل حافي القدمين قد نظر إلى يدي المرأة، كانت اليدان خاليتين. كانتا دائماً خاليتين. وكان هو قد نظر ثانية أيضاً.

أغمض العينين وتقلب على ذلك السرير الكبير.

رأى أمه ثانية. كانت متعبة ومنتظرة، كما كان رآها في آخر لقاء لهما. الشعر أبيض وخشن. الوجه مكسور و مريض. على قطعة حصير كانت تتلوى على نفسها في تلك الغرفة المدخنة.أين هنا ؟ أهو المكان الذي ولد فيه؟ قرب قرية «سلفچگان» أو ربما «أراك» أو حتى «قم» أو

أنها... لم يكن يريد أن يتذكر أكثر من هذا. لم يكن يريد أن يعرف من أين جاءت. تحت ضغط الوهم فتح العينين. قرع القبضة المضمومة على الجدار ونعر:

- أجعل أمه تقيم العزاء. هؤلاء الأجانب، يسقط...

فتحت غنچه فزعة الباب. أشاح كرامت بوجهه. ضم قبضته ودق رأسه على الوسادة.

- ماء، هاتي لي كأس ماء.

قالت غنچه مدردمة: - ها قد بدأ ثانية.

و خرجت. سمع كرامت صوت جرس الباب، و بعد لحظات صوتَ حديثٍ قصير.

- أين «رستم» سنا[٣٦] هذا؟

عرف صوت الدكتور. نهض، جلس. انفتح باب الغرفة. دخل الدكتور وغنچه. قال كرامت:

- جرجرتِ في هذا الوقت من الليل مسعوداً من فراشه، لماذا؟

قالت غنچه:

- أنا لم أقل له أن يأتي. إنني تلفنت فقط لكي...

قال الطبيب:

- جئت أشكوها إليك. جرجرتني في هذا الوقت من الليل من الفراش. ومن حضن أية لعبة! كصفحة الشمس.

رفع يده إلى أعلى، ضم أصابعه، قبَّلها ودفع أعلى جذعه إلى وراء مقهقهاً. قطبت غنچه و خرجت من الغرفة. قال الدكتور:

- فلأر كيف حال ذاك المكان منك؟

و مرة أخرى ذاب ضحكاً.

جلبت غنچه شاياً و نُقلاً. كان حديث الرجلين قد أزهر. وكأنما كان ثمة اختلاف أذواق أيضاً. قال كرامت:

- دعني أقل لك هكذا أيها الدكتور العزيز: إن المعاملة بالعتيقات مع اليهود خطرة أصلاً وفرعاً. لا يمكن الاتصال بيهود هنا إطلاقاً.

عوج الطبيب عنقه و سأل واثقاً:

- لماذا؟

رفع كرامت الصوت طبقة إلى أعلى و قال:

- يدبرون لنا قضية، أنا خادمك.

ثم استدار نحو غنچه و قال:

- يقول لماذا؟

قال الدكتور:

- أولئك أيضاً الذين رأيتُهم في تركيا لا ينفعون لشغلنا.

قال كرامت:

- الآن تفضل حضرتك فقل لنا لماذا؟!

قال الدكتور:

- لم يبدوا لي باعثين على الثقة. لا يمكن الاطمئنان إليهم.

قالت غنچه:

- اشرب شايك. برد.

مد الدكتور يده فتناول فُليسا[٣٧] ووضعه في زاوية فمه. قال:

- أمس كنت طوال الوقت أفكر في أنه لو انتهت الحرب و انهارت الأسعار فسيصيبنا الهلاك جميعاً.

قالت غنچه:

- لا تقل، الله عليك! قفَّ كل شعر بدني.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما نهض الدكتور. قال كرامت:

- حقاً!... كان المفروض أن تخبرنا ما الأدوية غير الموجودة في الصيدليات كي أرسل الصبية إلى «دبي» يأخذونها فيجلبونها ويدلقونها إلى «ناصر خسرو»[٣٨]... الأدوية ذات القيمة الجديرة بالتعب ها!

وضع الطبيب كلتا يديه على عينيه. وضع حفنة بزر في جيبه وانصرف.

كانت غنچه تقول:

- هل حصل أن أمسكت في يوم من الأيام يد امرأتك وأخذتها إلى السينما؟ لمن إذن يصنعون هذه الأفلام؟!

كان أول فيلم رآه هو «لات جوانمرد»[٣٩]. كان الأخ حسن قد أظهر غيرة، فقتل الشاب ذا الأهواء وأنقذ فاطي[٤٠] المغرر بها. و لما كانت مراكز الشرطة لا تملك شجاعة هذه الأعمال، فعلى الأخ حسن و أقرانه هؤلاء أن يشمروا عن سواعدهم. كان قد ارتاح له. ولكن فاطي... أية دمية كانت! لو كنت مكان الأخ حسن، لكنت خطفتها فجأة من الهواء.

- دخلت ميدان العمل حديثاً. كأنها لم تمسسها يد بعد.

خرجت پري من وراء الستار. كانت ترتجف، والحرير الرقيق الذي يشف عن البدن ينزلق عند الكتفين إلى تحت. خصلات الشعر الكبيرة و السوداء تبرق فوق الجبين الناصع. كانت شفتا غنچه الحمراوان حمرة الكبدة نصف مفتوحتين. القبضتان أمام البطن، ألقت مقابل الرجال رأسها مثل طفل إلى أدنى. كان شعبون يضحك مقهقهاً، ويحك صدره مصوِّتاً.

كان العشق الأول هو العشق الآخر ذاته.

- لماذا تأتي إلى هنا؟ تريد أن تعطيني خبزي.

كان يذهب كل يوم إلى المبغى. لكنه ما كان يمسها. يجلس على الأرض عند السرير و ينظر إليها. كان قد جعل الفتاة غير ملتزمة. كانت الرئيسة تدق الباب وتنقّ:

- ألم تكملي يا پري!؟... أسرعي فزبائنك منتظرون.

كان شعبون قد منع السماح بدخوله من بعد. مرةأخرى وجد أمام قدميه خاليا[٤١]. مالٌ، لو كان عنده مال فقط لكان أمسك يد پري وأخذها. يأخذها إلى قريته. يأخذها عند أمه. يأخذها... في ذلك الزمن لم يكن عنده من مال الدنيا شيئاً. هو والقفطان على بدنه. كان غسوله الشمس. في بعض الأحيان كان يحمل سلة فيبيع الكشك[٤٢] والزبيب والثمار المجففة. وفي بعض الأحيان ، عندما كان يطيق صبراً، كان يذهب إلى ميدان الخضار فيشتري عشرة كيلوغرامات أوعشرين من بقايا الخضر و يصرِّفها كلها إلى ظهر اليوم التالي. و في بعض الأحيان كان يأخذ خوة. و أحياناً كان شعبون يمنحه إنعاماً سخياً. ثم إنه لم يكن لديه مصروف. بورقة عشرة تومانات واحدة كان يجول الدنيا. كان يسرح وكان سعيداً. بعد ذلك أصبح بائعاً جوّالاً.

كم سنة تحمَّل المشقات في حانوت حبيب، ما كانت الفائدة؟ كان عزيز القرقي حمَّال جثث الحانوت قد نوَّره: هو من تنازع روحه، و لكن حبيباً هو من يأخذ حفنات أوراق النقد ليلاً إلى بيته.

في البدء كان يخلط بين رأس العمل وكعبه. ثم تعلم فنون التطفيف و سوء البيع. وفي الآخر أفرغ الحصَّالة و اختفى. أمضى شتاءً كاملاً متسيباً مع عزيزالقرقي و أنفقا المال على ؟؟.

ومن بعد ذلك شرب الماء البارد[43] لستة أشهر في دار التأديب... ربما لو أنه كان بقي عند حبيب مقيماً لصار وضعه أفضل،.. كلا! كان قد جعله أسيره. لم يعرف الدنيا إلا بعد سنة أو سنتين. عرف أنها لم تكن تستحق من اهتمامه قدر ما يولي خصيتيه. كان في دار التأديب عندما انفتحت عيناه وأذناه. هناك تعرف على حسين ديناميت و رضا هفت خط.

أخذ وراء حمامٍ مخروب غرفة. كان گليم[44] مسجدي ومصباح ضغط روسي كل رأسماله. و لكن نظرة عينيه كانت جذابة للنساء، وبسبب هاتين العينين كانت بتول مستعدة للتضحية بحياتها عند قدميه. كانت كرمانشاهيَّة[45].

- أريدك، أنا عاشقة صدرك المشعر.

هناك وشم ظهره و ذراعه و لم يُرِ المرأة غير عين واحدة فجعلها أسيرته المنقادة. قالت بتول:

- لا... لا، لا تتقدم.

دفعت بيدها كرامت إلى وراء.

كان قد أوقف بنز جديدة عند سياج الحديقة. كان لون بتول لون كلس الجدار. إلى أن يتحرك كرامت، ركضت بتول نحو الباب. وقف كرامت في الإيوان؛ متكئاً على الجدار . رفع حاجباً وأخذ يراقبهما.

كانت مناجاتهما في البدء هادئة. ثم ارتفع الصوت طبقة. كانت بتول تقول:

- عندي سند يا سيد، سند. يعود لي بكامله، أتفهم؟

و الرجل يهز أصبعاً في وجه بتول و يهددها. كان ثمة حديث عدلية

و محامٍ. وحتى حديث إحراق الحديقة. لا بد أن بتول ، متقوِّية به، قد أطلقت صوتها على رغم كل المداراة.

– هو نفسه سجلها باسمي، بميله ورغبته. عندما كنت أنت وأخواتك قدماً هنا وقدماً في أوربا منشغلين بالمباهج والتسليات، كنت أنا من غسلَ خراءه. كنت زوجته الشرعية، لم أكن قد ذهبت إلى بيته بالحرام! أُحرق هذه الحديقة و لا أسلمها بأيديكم. تقاويتم على رأسي يعني ماذا؟ أظننتم أنني لا سند لي و لا معين؟

عندما سمع كرامت اسم السند والمعين، تحرك عِرق غيرته. تقدم. كان يتقدم برخاوة و بلا اهتمام ومبتسماً بسمة معوجة من زاوية فمه، كأنما يحرك بدنه الضخم من أجل تأنيب طفل ضخم الجسم. بلقلقة الحذاء تلك، بذلك الشعر المدهون على الجبين والمرفرف في الهواء كما لو كان قنزعة ديك، و بتينك العينين إياهما، العينين اللتين تبرقان برقاً حقيقياً. لو أنه كان يرمش لأمكن أن يُرى ذلك البرق في الهواء.

عندما رأى الرجل جسد كرامت و حركته أضاع نفسه. أمسك كرامت بياقته ورفعه عن الأرض شبراً ولم يقل غير كلمة واحدة: من الآن فبعد، شغلك معي! مفهوم؟

كان الرجل يخفق يداً ورجلاً. انبرم لسانه وقد خرج أعوج من زاوية فمه. لم تكن لديه الجرأة على النظر إلى وجه كرامت. فمهابته تذيب المرارة و الصوت الذي يندُّ عنه يشبه كل شيء عدا صوت الإنسان.

و كانت بتول، مبتلة الوجه دمعاً، تهز رأسها مع كل خفقة يد ورجل يخفقها الرجل، حقداً، وتلهث مثل طفل. كان انتقام شهورٍ من ارتجاف البدن والخوف و الارتعاش يزول بحركة واحدة من القدم، يؤخذ بمجرد أن يمد كرامت رجله أسفل الإيوان.

كـان لون الرجل يزرقُّ عندمـا وضـعـه كـرامت أرضـاً. التف الرجل مرتبكاً.

- انظروا: بلل نفسه!

كان يبحث عن مقبض باب السيارة فلا يجده. مد كرامت بنفسه يده وفتح له باب السيارة ثم وجَّه له ركلة. كما لو كان سطح الشارع مفروشاً بالإبر و الدبابيس، كان يتقافز صاعداً نازلاً.

- لا تعد تظهر هنا، ها!

و إلى أن جلس وراء المقود، كـان قـد بلل كـفـه بلسـانه و هرس به عنقه.

- كي لا تنسى!

وقف وسط الشارع العريض ينظر، موارباً، إلى السيارة التي كانت تبتعد. أغمضت بتول عينيها، أراحت جبينها على لوح ظهره وتنهدت مرتاحة. كان ظهر الرجل العريض قد أخذها، كما لو كان صخرة عظيمة، إلى حماه.

كانت تلك الأيام أيامه البهيجة. بتول تعطيه كل ما تحققه من دخل. حتى أنها ذات مرة، عندما وقعت في شغله عقدة، باعت كل ما كان عندها من ذهب، فجعلته نقداً مخشخشاً و سلمته بيده. فتح كرامت دكان قصابة. كتبت بتول دينها على الثلج و وضعته في الشمس[٤٦]. لم تذكر خبره قط. كانت تعرف أنه ليس بمسدِّده.

في تلك الأيام جلس كرامت تحت رجليها كي يبيعا الحديقة و يفتحا مطعم چلو كباب[٤٧] ؛ رأس المال منها و من كرامت العمل.

- ليس لها سند مضبوط وصحيح أصلاً.

- تقصيري. بدون مسوغ أبعدت ذلك الشخص الأحمق. كان ينبغي أن أصل معه إلى اتفاق. ثم أخذ يهز يده الكبيرة العريضة في الهواء أمام عيني بتول و يقول:

- ما فيها... هذه اليد لا ملح فيها!

كانت بتول تعرف أنها لن تكون بعد اليوم صاحبة أي شيء، فما كانت لتخضع. كان كرامت يلح، وبتول تتذرع بحجج.

- لست صاحبة الحديقة. لماذا لا تفهم الكلام؟

- من صاحبها إذن؟ ها؟ من صاحبها؟

ما كان الشغل يتقدم باللسان الطيب. كانت «فري المرتَّبة» تعرف سابقة المرأة. تقول:

- كانت صيغة[٤٨] منتخب نيا. ألم تكن تعرفه؟ كان صاحب نصف أراضي (محلات). سجل العجوز ، قبل أن يموت بالسكتة الأخيرة بشهر، هذه الحديقة باسمها.

كانت أخلاق كرامت قد صارت كالخراء.

- لا يحتاج الأمر إلى مأتم! اتركها بضعة أصباح، ستأتي هي بحثاً عنك.

- تعرفين أنني لا أستطيع أن أبقى بدون امرأة.

أمسكت فري المرتبة يده وأخذته إلى بيتها.

كانت أقدس تعد البساط. وتصير هي نفسها ساقية. تدير الكأس وترش خصلة خصلة على وجوه الرجال. يفوح الشعر رائحة قهوة وجوز الهند، كان يبرق و كان كثّاً. كانت تعزف الـ «تار»[٤٩]، و عندما تنسجم تجلس متربعة هناك في الوسط، ترفع رأسها عالياً وتهزه بهدوء مثل

مرساة و تغني. كانت تغني بمرارة و حزن، وعندما يرتفع الصوت إلى أوجه، يتوقف الدم في العروق و يتذكر كرامت تعاساته. كان يقول:

- الشكر لدينك، كفِّي يا امرأة! التهبت كبدي.

يصب الرجال عند قدميها أموالاً طائلة. يضعون أوراق النقد في الخط بين ثدييها. عندما تسقط ما كانت لتلتقطها. طويلة القامة، ممتلئة البدن، كثة الشعر. كانت كلوحات الرسامين. كان كرامت يجلس، بلا طاقة ولا نفس، صامتاً كالجدار وينظر إلى المرأة.

إذا كانت تقع فاصلة أكثر من أسبوع بين لقاءين كان كرامت يجن.

- يا خبيثة أين كانت هذه؟ أأخفيتها عنا؟

فرجت فري المرتبة شفتيها مكشرة: يا عديم الدين إنها لن تسلم نفسها لأحد بهذه السرعة.

لم تكن أقدس تراه، وهي ما لم تجعل الرجل ييأس منها تماماً، كانت تنفث آخر أنفاسها من بين شعرها الأسود الذي كان يغطي، بهزة واحدة، فجأة، وجهها، و يرسم برقُ نظرتها قوساً في فضاء الغرفة شرارةً تكفي كرامت أسبوعاً.

في الأسبوع التالي كان يعود ثانية، و مرة أخرى لم تكن أقدس توليه اهتماماً حقيقياً، لم تكن محتاجة. كان كرامت يعرف أنه لا يمكن تزييت سرَّتها[٥٠] بهذا الرخص. كان ينتظر أن تطلب منه شيئاً. كان ينظر وسط ذلك الحشد إلى أقدس مباشرة، محدقاً. كانت المرأة تهرب من تحت نظرته كما طفلة. لم يكن كرامت يبارح الباب، فهو يدري أن ذيل الدنيا طويل[٥١].

بعد بضعة أشهر كان كما لو أن الإثنين صارا يدريان أن الأمر لن

يستغرق أكثر بعد. و كان لأحد أفراد الميدان دور أيضاً بالطبع. ليلة واحدة فقط! صارت أقدس له ليلة في الأسبوع، و في الليالي الأخرى لم يكن له بها شأن. و لكن بلاء روح أقدس كان شاباً طويلاً كان- عندما يجلسون حول البساط- ينهض دقيقة بعد أخرى، يضع يديه على كتفي أقدس، يقبل خدها البض بلا انقطاع و يقول: عندك مخلص واحد لك في هذه الدنيا و هو أنا.

لم تكن أقدس تحب حركته هذه، كانت تفقد أعصابها و تمسح تفاله عن وجههامغتاظة. و لكنها لا تترك الفتى.

كان الشاب قوياً. ينام إلى عز الظهر هناك دائماً. تخرجه أقدس بالقوة. كان أبوه عقيداً أوما أشبه.

فعل و فعل حتى تقدم كرامت ذات ليلة، أمام أعين الحشد، عابساً، ونعر نعرة و طقطق بحركة واحدة عنقه من الطرفين، أمسك بمؤخر ياقة الشاب و اقتلعه عن الأرض. رفعه مثل صوص صغير عن الأرض وألصقه بالجدار. أوشك صاحبنا أن يصاب بسكتة. ثم أراه ذؤابة السكين: إن أردت أن تشكو لأبيك العزيز فسأقتلع خصيتك.

برد المجلس فجأة. لم ترفع أقدس رأسها عن ركبتيها. لم يعد ثمة من يملأ الكؤوس الخالية. انصرف الضيوف مكسورين، بلا وداع، واحداً واحداً.

بقي كرامت هناك. تكلمت أقدس حتى الفجر عن سوء حظها. وضعت رأسها على كرة الـ «تار» و راحت تبكي. ثم ألصقت نفسها بكرامت كما لو كانت قطة، وقالت: اهتم بي.

في نور الستارة التي انفتحت فجأة في ذهن كرامت جاء «قيصر»[٥٢] آناً وذهب. فتح فتوات

(آب منگل) مؤخرات الگيوات[٥٢]. مرت الأخوات، عفيفات خجولات، مطأطئات الرؤوس، لصق الجدار. علم أسود مثلث، كاسة مربوطة بسلسلة بالبرميل الصفيحي، صوت الأذان العذب، الشعلات المكسورة للشمع في مرآة دار السقاية و عدد من الطيور الضائعة في زرقة السماء.

كانت غنچه تقول:

أنت خليّ البال ها! منذ الصباح في تلك المخروبة تلغو مع حفنة من المساجين الذين لا يفهمون الكلام، و ذهبت بعدها إلى الزورخونه[٥٤] أيضاً؟

حتى الآن يصيح هوى الزورخانه أحياناً، بين المشاغل، في رأسه. كان يسمع صوت جرس الـ «مرشد»[٥٥]، يلتف الصوت الحاد تحت السقف المقبب. عندئذ كان الجميع يرفعون الصلوات. يدور حول «غلام الدوّار» ويسحب جسده الضخم إلى الجفرة [٥٦]. كان شعبون هو من فتح رجْله على الزورخانه، و هو أيضاً أول من أعطاه كبّاده [٥٧] بيده.

كان كرامت ينتقع عرقاً و لكنه يلعب الـ «ميِلْ» [٥٨] بنفس واحد. لم يكن يعرف التعب . يرفع الـ «وزن»[٥٩] ، يروح إلى الـ «شَنَا» [٦٠]، ينتفخ صدره و عضده، يلتمع التصوير البنفسجي للشاه و الملكة على عضديه فوق الجلد بارقاً .

كان دائماً صاحب الحلبة[٦١]. يقول المرشد: يا علي[٦٢] ، يدير جِلد الإيقاع على حرارة نار المنقل ويدق الجرس، فيدور [٦٣] كرامت. من أربعة أطراف الجفرة ينادون: ما شاء الله، يرفعون الصلوات، فيدور كرامت

أكثر. وكان باب الزورخانه و جدرانهامزيَّنة بالسجاجيد المربعة الصغيرة والستائر المطبوعة عليها صور الأبطال و المرايا و الزهور الورق جميعاً تدور. كان يقول: على هذا النحو أطرد سمَّ بدني.

كل من ينظر إليه يصاب بالدوار. يرفعون مرة ثانية الصلوات على عمى عين الحسود و طالب السوء. ينغمر مصباح المرشد إلى وسطه بالمسكوكات النقدية. من دونه لم يكن للزورخانه رونق.

في المنزع كان شعبون يثير دائماً موضوعاً. يتحدث عن غيرة الملة وناموسها و يرمي شيئاً - أي شيء عند يده أو حوله - على الخائنين. لم يكن كرامت يفقه شيئاً. لا يدري عمَّ أو عمَّن يتكلم شعبون. و لكن عندما كانت عروق رقبة شعبون تتورم انتفاخاً و يشرع بالشتم والتفحيش، و ينثر - بفم امتلأ زبَداً - البصاق في الأنحاء، كان كرامت يقول معربداً: لتتجمد أنفاسهم. من يكونون يا آق[٦] شعبون!

ثم يمد يده، يدور و يقول : ما نحن هنا إذن يا سي شعبون؟ افتح شفتك فقط و الجميع، صغيرهم و كبيرهم...

يمد شعبون يداً وسط صوف صدره و يقسم برأس شاه البلاد. كان يقول: لا جعل الله أن تصل الأمور إلى تلك المسالك... مهما يكن فإن أمنا طرحتنا في هذه البلاد، و في هذه البلاد عينها سنضع رأسنا أرضاً؛ يجب ألا ندع الخائنين يبيعون هذه البلاد للأجانب.

ثم يرفع الصوت طبقة و يقول: نحن جميعاً فدائيو صاحب الجلالة.

و عندئذ كان يقف مائلاً إلى يسار و إلى يمين أمام المرآة، يضغط عضلاته و ينظر إلى تصاويرالشاه والملكة على العضدين.

على هذه الأنحاء كان أن جرّ قدم كرامت إلى المعمعة. «حسن

عرب»، «رمضان يخّي»، «غلام دده»، «طيِّب»[٦٥]... كانت تلك هي الأسماء التي يسمعها من لسان شعبون.

لم تكن بتول تتخلى عن الحديقة، و ما كان الأمر يتقدم نحو الحل باللسان الطيب. كان كرامت يتذرع بالحجج و يعربد.

كانت الحديقة باسم بتول و كان هو ذاته قد سمع هذا من أحد عاقدي وردات العنق المتغندرين الذين كانوا يحومون حول بتول. لم يكن الأمر يتقدم باللسان الطيب. يفتعل كرامت الذرائع و يعربد.

و في أحد هذه الأيام نهضت بتول فذهبت نحو التلفون. طلبت رقماً ثم سألت عن جناب العقيد. كان قد شم قبل هذا أيضاً أن أحد هؤلاء الكبار يرسل اليها سيارة وسائقاً.

كان صوت ضحكات بتول يجعل الصياح يهز السقف. صفق الباب مستاء وذهب.

ذهب عند شعبون ، و قبل أن يفتح فمه بالشكوى قال شعبون:

– حسن أنك جئت. كن هنا في الصباح الباكر غداً إذ عندي عمل معك.

نزل الشيوعيون إلى الشوارع. لهم نظارات و أربطة عنق. و كانت بينهم نسوة غير محجبات. كانوا يطالبون بالخبز و بشيئين أو ثلاثة أخرى. سلَّمه شعبون بيد غلام دده. مزق بضعة أنفار بالسكين. جاءت الدبابات و المدرعات فيما بعد إلى المسرح. ملأ الدمُ الجثث في الشوارعَ. كان كرامت يدير السكين فوق رأسه، فتتعرَّف مشامُّه الدمَ الآدمي. في الصباح الباكر كان قد عمَّر نفسه بخمسة أسيار[٦٦].

كان هذا أول عملَ شارعٍ في يوم حارصيفي . كان أمريكيٌّ قد جاء

إلى إيران، اسمه هاريمن. كان كرامت يقول: من هو هاريمن هذا؟ نحن أكثر منه سُعاراً[٦٧].

ثم كان يتخذ لنفسه مظهر المنتصرين؛ يترك مقدم القميص مفتوحاً حتى السرَّة. تبرق سلسلة الذهب الغليظة على شعر الصدر الأسود. كانت خشخشة الحذاء، بذلك الإيقاع الغامض، تجر النسوة إلى ما وراء الشبابيك. يسحب حافة القبعة المخمل إلى أمام، يسوِّي موضع الجاكتة السوداء على الكتفين[٦٨]، يمسح بيد على الشارب المدهون، وأخيراً، يبتسم بفم أعوج لامرأة ينتخبها. لم يكن يمر يوم من دون أن يسقط أمام قدميه على الأرض- من شق بويب أو مأمن سقف- منديل معقود. لا يرفع المنديل إلا عندما يكون عرف صاحبته حدساً و يكون طالباً لها. داخل المنديل كان ثمة دائماً موعد بمكان اللقاء، مفرد قُرْط، مال أصفر، شيء ما. كان شائعاً على الألسن أن محل بيع الذهب في مدخل البازار إنما فتحه بهذا الذهب الذي أعطته إياه النساء، و بلغه ذلك.

لم تكن بتول، بالطبع، بتاركته. كانت تقول: أتناول السم فأقتل نفسي.

تُخرج من حقيبتها زجاجة دواء و تمسكها أمام عينيْ كرامت. تقول: من دونك لا تنفع هذه الحديقة إلا لأن يحفروا فيها قبري.

كانت المرأة ترتدي بنطالاً و قميصاً ذا ياقة رجالية، و تنتعل جزمة مطاط. عندما يصل كرامت من الطريق تتجاوز، مثل منافس متحدٍّ، الخصمَ و تمضي.

- من يكون هذا؟

كانت بتول تنظر إلى الأرض. تُخرج بضع شعرات من جنب أذنيها

إلى أمام وجهها، تلف بقية الشعرات على أصبعها، تبتلع ريقها و تنظر فجأة ثانية إلى كرامت، تسحب بسمةٌ مُقْسَرةٌ الشفتين من الجانبين على صفحة الوجه. تنهض، تمضي نحوه.

- عندما تعبس، كم تصير مرغوباً!

و تلصق نفسها به. بهزة واحدة يبعد كرامت المرأة عنه.

- ها ؟

لم تكن بتول تعطي جواباً مضبوطاً، وفي كل مرة تقول شيئاً. يزم كرامت شفتيه، يُخرج نَفَسه ساخنا من أنبوبتي أنفه، يدير فحشاً تحت أسنانه بنفور و يبصق على السجادة. يقف لحظة بلا حراك وقبل أن تصاب بتول بالسكتة خوفاً يصفق الباب ، بشدة تجعل المرآة تسقط عن مسمار المشجب و يذهب.

لم يكن كرامت يفهم شيئاً من أسرارها، و قد تغاضى عن ذلك كله. و لكنها كانت تنبق أمامه في كل آن، أو تذهب إلى محل قصابته، وأوشكت أن تثير في المحلة فضيحة. كانت تقول: عاشقتك! ماذا أفعل؟

ينقل كرامت الجاكتة السوداء من هذه الكتف إلى تلك. ينظر لحظة بغضب من زاوية عينه إلى المرأة.

- اذهبي، اذهبي افركي ببدنك خراء و اجلسي أمام الشمس. لا تدعيني أراك في هذه الأطراف!

و كانت المرأة تأتي ثانية . تقف في رأس الزقاق في مواجهة الجدار. تلف وجهها بإحكام ، و ما أن يمر كرامت بها: آق كرامت! فكان كرامت يلعن نفسه، و المرأة، و المكان و الزمان و يمضي في طريقه. تبكي المرأة ووجهها إلى الجدار، و تأتي في اليوم التالي ثانية.

أرسل إليها كرامت صبيانه الزعران كي يخربطوا أوضاعها؛ فضربوها مبرِّحين، قصُّوا لها ضفائرها، وضعوا السكين على حنجرتها وابتزوها. مساءً، نام كرامت في مركز الشرطة، علم شعبون. أرسل خبراً إلى إمامي[٦٩] ، نائب المجلس. أُطلق سراحه قبل الظهر.

كان إمامي يقول:

- الآن فوضى. يجب أن يكون للبلاد كبير. كبير حقاً وصدقاً. مثل كبير البيت الذي يعطي خبزاً و يضرب أيضاً. يجب أن يكون كبير البلاد مثل ناصر الدين شاه[٧٠]، الذي سأل كم الساعة فقالوا الساعة على وفق رغبتك مولانا! أو مثل رضا شاه [٧١] الذي قال : اذهب ولِّ، فذهب المقصود و قتل نفسه[٧٢] . على هذا النحو ينسجم الأمر مع مزاج هذا الشعب أيضاً.

كان أول الظهر عندما وصل كرامت غرفة حوض المجلس. كان كل من يقدرون الناس في طهران مجتمعين؛ شعبون بي مخ، رمضان يخي، طيِّب، غلام دده،... الجميع. ثم وصل السيد إمامي أيضاً.

- في ذلك الوقت يقول السيد مصدق: يجب أن يكون الشاه لا شيء و أكون أنا كل شيء. و هو دائماً تحت البطانية، بكتفيه الهدلتين ورأسه القَرَعي، ما إن تنفخه يقع و من ثم لا يقوم أيضا[٧٣]. لا، لا فائدة. ليس في عمله صراخ و انتهار. طبيعي أنه من حيث الزعيق، يزعق، ولكن صغار القرويين الذين تجمعوا حوله - بدل أن يخافوا ويهربوا - ينْصَبُّون حوله و يرفعونه على الأكتاف.

أشار غلام دده إلى إمامي، و قال في أذن كرامت:

- مع صاحب الجلالة روح واحد في قالبين. كان يقول لي إن مزاج صاحب الجلالة صار ، بسبب هذا العجوز، لا يطاق.

كان إمامي يقول:

- لا توجد حرية و لا يوجد أمن. يريد العجوز أن يدير البلاد من تحت البطانية. أفيصحّ أن نضع يداً على يد، نجلس، و نتفرج على السيد و هو يقدم البلاد - بكلتا اليدين - [٧٤] إلى الشيوعيين ؟ لقد اعتمد صاحب الجلالة حقاً الصبر.

ثم جلبوا صواني الـ (چلوكباب)، أفخاذ الدجاج، و صلصة الـ(فسنجان)[٧٥] . ارتفعت انتفاخات البطون، وصلّيات ريح الحلاقيم من كل طرف. دار الإبريق الفضة فغسل دهن رؤوس الأصابع. فتحوا المناديل اليزدية عن المعاصم و مسحوا العرق عن الألغاد. كانت الجفون تثّاقل. متكئين على الجدار، انزلقت القبعات المخمل إلى ما فوق الحواجب. ارتفع صوت الشخير من الأطراف الأربعة.

في تلك السنوات لم تكن عنده فرصة يحك بها رأسه. في الليل، بعد جري النهار، عندما كان يضع رأسه أرضاً لم يكن حتى المدفع يستطيع أن يوقظه. و لكن الآن، إذا ما طارت بعوضة يستيقظ. ثم أنه عندما يزول صحوه يرى حلم مزبلة التاريخ. أو حلم لقلقة النعال في دهاليز السجن العارية. ثم يرى صف حجيرات التعذيب، مملوءة جميعاً بفتيات يشبهن، في تلك الچوادر السوداء، الغربان السود. فجأة تهجم الغربان ، ناعبة، عليه. أو يرى حلم المدافع الموجهة نحوه. وثمة ابن ملجم[٧٦] و حرملة[٧٧] أيضاً، والغربان السود تنقر بؤبؤي عينيه. يعربد، ويقفز من النوم. تقوم غنچه نصف ناهضة. كان جبين كرامت غارقاً في العرق.

انقلب قلبة، وشتم. مد يده على فخذه. ما كان شيء ليهدأه. كان فمه مراً يابساً و عظامه، بؤبؤا عينيه و مكانٌ في قعر وجدانه تحترق من وسم جرح كبير. في الماضي كان مهما أذنب فإن ظلاً من صفاء باطني ينقذ لياليه. هز رأسه. قال، كم أنا سيئ، انجرح.

كانت غنچه تقول:

- قل لي، يجب أن نسمع خبره من الناس؟ الآن، كل عديم شأن قبل أن يُخرج يده من القماط يأخذ جواز سفره ويذهب مباشرة إلى تركيا. البنت الكبرى للسيد منوَّر...

- الذهاب إلى تركيا شغل العاطلين. أنا عندما أرفع رأسي من النوم لا أدري بأي عمل من أعمالي يجب أن أعنى أولاً.

- طيب، إن جميع الرجال يذهبون صباحاً إلى أعمالهم و لكن عند العصر إذ يعودون يكونون ملكاً لزوجاتهم و أطفالهم. أنت ما شاء الله صببت ألف عمل على رأسك.

غنچه تقول الحق، و لكنه كان منذ البدء كثير الشغل.

في تلك الأوقات كان يمر صباحاً أولاً بمحله لبيع الذهب. يستل الشعرة من اللبن[٧٨]. ثم يعود إلى محل خلوته. لا يدخل محل القصابة. يقف على الرصيف و يراقب الشارع الضيق، النسوة حاملات الزنابيل باليد لابسات النعال في الأرجل، الأطفال الذين يعلكون قطعة خبز جافة والمخاط يعلو شفاههم، السيارات، الدراجات الهوائية و المخازن المحيطة. و في بعض الأحيان كانت زاوية ستارة طابق علوي من بيت ترتفع، أو ما

أن يدير كرامت نظره حتى تنسل امرأة فجأة إلى وراء سياج سطح.

كانت النوافذ تمتلئ شيئاً فشيئاً، و ملجأ السطوح أيضاً. كان الجميع ينتظرن. في ذلك الوقت كان كرامت يهزجذعه الضخم. يمد خطوة، وفجأة يعربد شاكياً من شيء. يتيبس الجميع للتو. ينكتم ذلك الشارع المزدحم المملوء بحركة الناس و مزامير السيارات و زعيق الأطفال. كان الجميع يلتفتون و ينظرون شامتين إلى سائق دراجة نارية يجتاز الشارع مصفراً و بلا اهتمام، مع نعيق دراجته.

كانت برودة هذا الصمت و عدم الحركة يزيدان القلق. لم تكن القلوب تفسح المجال لتصورات السوء، و لكن من يدري نتيجة الأمر؟ كان الكسبة على الرصيف ينظرون مظللين عيونهم بأكفهم، و قد توقفوا جميعاً عن العمل، إلى محل القصابة. كان الصبية قد مسحوا كل مكان، اعتباراً من منضدة الشغل والثلاجة و الميزان إلى زجاج المحل وأرضيته ، كي لا ينزعج كرامت، فجعلوهما يبرقان كالمرآة، ولكن كان يوجد دائماً شيء، شيء يجعل كرامت يطلق صوته و يجعل زجاج محل القصابة كله و قلوب كل النساء ترتجف رجفة لذيذة.

كان مكان ما قذراً دائماً؛ قطرة دم من لحم أو... الصبية قد أهلكوا أنفسهم، ولكن مكاناً ما كان قذراً دائماً.

كان كرامت يخطو إلى محل القصابة ويداه في جيبيه. يذهب متسللاً، عندما يكون الجميع قد كتموا أنفاسهم، إلى وراء منضدة العمل. يدير، بشفتين مزمومتين و حواجب ذابلة، الساطور فوق المنضدة الخشب. البرق الذي ينعكس عن حافة الساطور فجأة يبهر العيون. كانت عضلات وجوه النساء تجفل، وتضغط الأنفاس المحبوسة على الصدور.

تثلج أعماق قلوبهن و يترسب القلق طبقة طبقة، مثل شيء لزج، ويواصل كرامت، واقفاً على ذلك النحو منفرج الساقين، لعبة تدوير الساطور على منضدة العمل للحظات. يلف صمت الموت كل مكان.

كان الصبيان يخبئون أيديهم وراء رؤوسهم.وتغطي النسوة - مخافة أن يعرفن- وجوههن بإحكام أشد. تخرس عصافير كناري القفص و حتى قطة البقال الجار - التي كانت تتسكع دائماً متكاسلة أمام محل القصابة - تغيب فجأة. كما لو أن فاجعة ستقع عما قريب. يستمر هذا حتى يرفع كرامت فجأة عينيه، ثم يبدو برق آخر؛ مفعم بتلك الفحولة الصريحة، من دون أن تكون مخيفة، بحيث يمكن حتى البحث عن شيء حاضن ودافئ فيها.

تتنفس النساء الصعداء و يحييه الجميع من كل أطراف محل القصابة؛ من الصبيان إلى الزبائن، بخجل و على استحياء. يطقطق كرامت بحركة واحدة عنقه البدينة من الجانبين، و يجيبهم مدردماً بفم وشارب و حاجب مائلة. تنتهي الغائلة على خير.

و في بعض الأحيان، عندما يرى امرأة فقيرة على باب الحانوت، كان يُمرر جسده الثقيل، منادياً يا الله يا الله، من بين النساء، فيذهب إلى الثلاجة و يُخرج قطعة لحم أجرد من العظام، يلفها بجريدة ويضعها بيد المرأة. و كان بعد ذلك قد فتح محل الفواكه حديثاً، أيضاً. و فوق ذلك ,كان الرفاق قد جلسوا تحت رجله كي يفتح معرض سيارات كذلك.

كان يعرج، قريب الظهر، طريقه نحو بيت إحدى صاحباته. وكما لو كان ضيفاً محترماً، فقد كان ثمة على الدوام - عندما يصل - سفرة منوَّعة مبسوطة، و كانت تملأ هواء البيت من كل جانب رائحة الزعفران والكباب و المرق.

عندما يصل، كانت القطة، التي يبلغ بطنها الأرض، تضيع نفسها بين جنْبات الجنينة، وتطير الطيور، و إن كان في الجدار صرصار فقد كان يقف. كان هو يضع، لاهثاً، رأسه في الباحة تحت صنبور الماء، و لا تنطفئ ناره. كان يحب الصيف. الصيف يعني له الروائح الحيوانية للنساء، يعني رائحة جانب الفخذ المتخدر، رائحة الأفواه الحامضة والشفاه المرطوبة نصف الفاغرة، رائحة قطرات العرق الرقيقة على الحناجر البلورية.

نصف عارٍ و لاهثاً يجلس على رأس السفرة. ينهش صحن دجاج أو صحنين كبيرين، يتناول كاسة أو كاستي حساء ساخن دائماً و يشرب البيبسي زجاجة زجاجة. يشرب الحساء ساخناً جداً دائماً، كما لو كان فمه مبطناً. في الفترة التي يدير فيها المنديل حول فمه يطلق ريح بلعوم و يأخذ من تحت سرة المرأة قَرصة و يسخر و يستهزئ بكلمة أو إثنتين.

كان يحس الحرارة دائماً ,و يحب هذه الحرارة. هذه الحرارة ذاتها هي التي تحيي كل الروائح التي يحبها وتبقيه في بخور لزج، عارماً و فحلاً.

عندما ينهار تعباً كان يبلل قبضته بدورق الماء. يغرز أصبعاً في فمه و يسحب خيوط اللحم من بين الأسنان. ثم يضع يده على بطنه ويمسح، كما لو كان يجمع قبضة عجين في قعر الإجانة ويرتبها، أطرافه موجهاً إياها نحو السرة. كان يخفف حمل الأمعاء بصلية و حمل المعدة بصلية أخرى من الفم و هناك بالذات، عند السفرة ، يضع المرأة، كما لو كانت فرخاً، على صدره. تلصق المرأة فمها المبرعم بحنجرة الرجل ، وتغرز بوسط ظهره و عضده أسنانها، وتلحس بلسانها حبل وريده. بعد لحظات يقع بصر كرامت الأحول على القوس و يتنفس بشفتيه وخطمه

البعيرية من زاوية فمه لاهثاً؛ كما لو كانت روحه تطلع. تتعب المرأة. تجلس على بطن كرامت، و تأخذ حنكه في قبضتها. قبل لحظة كان كرامت قد غلبه النوم تحت سخونة نفَس المرأة.

يا للذة! و عندما يغمض عينيه كان يرى دائماً حلم نبع. نبع يفور مصوِّتاً و امرأة غارقة في هالة جسدها تدعوه نحوها بإشارة أصبعها. وكان كرامت يذهب نحو المرأة على الأربع. تمد المرأة يدها فتخلع كل ما في عنقها من زينة و تضعه في قبضته. تبرق عينا كرامت ويسيل الماء من زاوية شفته. كانت نوماته و يقظاته تكمل إحداها الأخرى.

كان الوقت بالنسبة له دائماً صيفاً. لم يكن يعرف فصلاً آخر. في الشتاء يكسر الجليد و يسبح في الحوض. كان موقد يشتعل دائماً داخل بدنه وتغطي الرائحة الحامضة للعضلات المتعرقة جسده مثل غيمة. و كان بؤبؤا عينيه يبرقان من شرارة هذا الموقد ذاته، هذا الموقد الذي يشتعل ساخناً أبداً، و هذا البرق من الحقيقية بحيث يمكن رؤيته في الهواء.

كان برق هذه النظرة، وهيكله الضخم و صوته المشروخ، رأسمالاً ضخماً، له مشترون عدة، لم يكن يبيعه رخيصاً. كان يحلب الصاحبات إلى آخر قطرة و يتركهن؛ ثم يتناول غيرهن. و لكن طلا، لا؛ هذه تختلف. حدَّ كرامت شفرته. لم تكن امرأة، كانت برعمة كشميرية. لها وردة جذابة.

كانت العطور التي ترشها على جسدها من الغلاء بحيث أنها عندما ذكرت قيمة أحدها لكرامت، تصاعد الدخان من رأسه[٧٩]. كانت كلفة المرأة عالية؛ تطير مع من هم في الأعالي. بكرامت، كانت تتلاعب فقط؛ لا تضع وزناً في ميزانه. تأخذه إلى رأس النبع، و قبل أن يقطر الماء من

شفتيه و خطمه ينفتح الباب و يدخل أحد جنرالات الشرطة. كان كرامت ينصرف لاهثاً.

كان هذا دأبها و ما كان كرامت يصب ماء في هذا الكوز. ما ينقصه عن الآخرين؟ كان يقول لنفسه إنه قد آن أوان المصاهرة مع الطبقات الأعلى.

من أجل أن يشكل كرامت مع امرأةٍ زوجاً لم يكن ثمة غير شرط واحد، و هو أن يريدها، فقط. و لكن هذه لم تكن تتيح الركاب على أي نحو. فكر طويلاً، رسم خططاً عديدة. أي اسم يمكن إطلاقه على هذا؟ أكان عشقاً وغراماً؟ ما كان؟ كان يبتسم ساخراً و يمد يداً على فخذه.

بعد بضعة أشهر صار قليل النوم. أخذ يشد حزامه على ثقبين أقرب. قبضة قبضة كان شعر رأسه يسقط. ينظر في الليالي صاحياً إلى السقف. يشم رائحة عطر المرأة فيدير رأسه فجأة و تمر هي بكل تلك الأبهة في حلقة نديماتها مثل ظل. ولكنها تقف فجأة لحظة، تبتسم له ببريق وجهها، ومثل النسوة في الأفلام، ما أن تمتلئ عيناها بالدمع حتى تدير وجهها. كان كرامت يرفع رأسه عن الوسادة. و حتى إنه كان يناديها. و مرة أخرى يكون السقف أسوداً ويضطر هو إلى التقلب. يلكم الوسادة، يشتم نفسه مقذعاً بعربدة... كان العلاج في المداراة.

مضى و مضى حتى راضَ المرأةَ أخيراً برقُ النظر، ذؤابتا الشاربين الخنجريتين وصوت الضحكة اللطيفة المتتالي، كما لو كان يمضغ قطع القند تحت أسنانه. عندما كانت تمسح بيدها على صدر كرامت و وتفوح تلك الرائحة المدوخة الحامضة التي ترتفع، كالغيم، من منافذ جسد الرجل إلى الهواء، فتبلغ المشامَّ، كانت ترتجف يداها و ساقاها. كان كرامت

يتلع رأسه وتتقوس النظرة المغرورة من الشق الضيق للأجفان الثقيلة مثل شهاب، و ينتفخ وريد العنق. كانت الطريدة الجموح قد صارت مطيعة منقادة الآن.

كان واحداً من أملاك المرأة بيتان كبيران على مفرق «دزاشيب» وفيلا أخرى بحديقة مدرَّجة، نوافير دوّارة، جنائن كبيرة و أشجار فواكه، فواكه لم يكن كرامت رآها أو أكلها في عمره كله. و كان عندها في «أميرية» أيضاً بيت مع جهاز أعيان. كان عندها حتى سكرتير و سائق، كلٌّ لعمله. الحلاق يأتي بكلب بضخامة الفيل لحراسة البيت.

جعلت كرامت يرى حديقة «إلهيَّة» فيما بعد. هناك كان يقام مجلس قمار مفصل في أول جمعة من كل شهر. يجلبون من الخارج مغنياً وندلاً، وينقلون في اليوم التالي بشاحنة صغيرة بقايا الطعام إلى دار المجانين في «أمين آباد».

عندما كانت طلا ترد على التلفون، كان أحدهم يعالج أظفارها ويريها الخياط - و الإبرة بين أسنانه و المقياس حول عنقه - قطع القماش؛ و كان ممكناً أن تصرف من الغرفة بعلامة من يدها فجأة كل من حولها: لقد ورد حديث شخصي.

كانت بشرتها بلون الحليب، تتبقع من دخان السجاير وتجشؤ الرجل.

- يجب أن تترك هذا الفعل.

و كان كرامت يخفض جفنيه، بعنق ملوية، ينحني قليلاً - ويده على صدره - فيمر هواء ساخن على اتساع جبين المرأة و خديها و حنجرتها. كانت ترتفع إلى قرب العرش. تمط بدنها مثل قطة. وتمر موجة هادئة ودافئة من عروق جسدها.

تذهب شتاءً للتزحلق على الجليد. تتصور - بنظارة شمسية وطاقية وقفازات صوف، و غضون الضحك مرتسمة على الوجه - بين الجليد ، وتُري الصورة لكرامت. كان الرجال يتكأكأون حولها دائماً، فرادى وأزواجاً. كانت تقول لكرامت: هذه الجمعة تعال أنت أيضاً. أتعرف التزلج على الجليد؟

كان كرامت يخض هيكله الضخم بقهقهة و يقول: يعني أن أجيء أنا بهذا الحجم و القوام فأتزلج على الجليد؟ هذا عمل أطفال.

بين تقويم منضدة طلا رأى تذكرة سينما. كانت بضع تذاكر، دعوة شرف. تظاهر بعدم رؤيتها. و بعد ذلك، ذات يوم، عندما كانت طلا أفرغت حقيبتها على المنضدة و أخذت تبحث عن شيء ما، قالت فجأة: آه! انظر إلى هذه التذاكر! لا تنفعني، أتريدها؟

عزل كرامت التذاكر عن بقية الأشياء. كانت سبعاً، تعود لثلاثة دور سينما. قالت طلا: كان عندي المزيد أيضاً.

و فرّت أوراق التقويم. تناولت التذاكر. قالت ربما فقدت هذه اعتبارها. دعني أر.

أعطاها كرامت البقية بيدها أيضاً. قالت طلا: نعم...أنهوا عرض هذا، و لكن هذه الأخريات لا... هذه يقولون إن فيلمها جيد جداً: «قيصر»!

قلبه قيصر من حال إلى حال. فكر أنه حتى عندما يضغط مقبض سكين في قبضته يمكن أن يكون له هدف. أحد الأهداف هو كيف يجرؤون على اغتصاب أخت المرء، و أخت مثل باقة ورد... ثم العريف الإنكليزي ، ورقة الخمسة الريالات و ذلك الزقاق المظلم.

صوَّت لحن قيصر في أذنه. انحنى. رفع مؤخر الكيوتين. السكين ذات المقبض الصدف. لا! ليس لمراكز الشرطة جرأة هذه الأمور. كان قيصر قد انتقم من عشيرة آق منگل بنفسه.

انتقام!... ركض، ركض داخل ذهنه. ركض إلى الماضي و رأى أن قبيلة من الناس قد عذبته في كل هذه السنين. السيد الإقطاعي! يوقف السيارة عند البيدر، يسحب السفرة من تحت أياديهم و يحطم كوز الماء. لقد جاء مطالباً بدينه. من الأم! كانت تخبئ لفافة الخبز عنه. طهرون! مدينة كبيرة تتصاعد رائحة الأرز المطبوخ من بيوتها. الرقيب الإنكليزي! ومن بعد ذلك، بزمن، حبيب! الذي في مؤخر الحانوت كان يدير أصبعه في شرج كرامت... ضرب بقبضته على راحة اليد، وفي داخل صدره كان جرو حيوان ما، دامياً مدعوكاً، يصيح. عض بأسنانه على عظم الساعد. لم يكن يريد أن تسمع غنچه صوته.

على أبواب دور السينما كان يرخي ساقيه. يحدق إلى ملصقات الإعلانات: قبعة مخمل سوداء وذؤابة سكين يقطر منها الدم، رجل سقط على جنبه عند حافة جدول ماء و تلك المرأة... المرأة التي چادرها في قبضتها، تركض عارية الكتفين ممزقة الملابس في آخر الزقاق. لم يكن يتأخر. يشتري كيس نقل و مكسرات ويدخل. كان صاحب سينما أورانوس صاحبه. لم يكونوا يطالبونه بتذكرة ,كان يرى الكل.

في بعض الأحيان كان يتردد: الآن أيذهب إلى هذا الفيلم أم ذاك؟ على رأس تلك السينما ملصق كبير؛ امرأتان بنقابين مرفوعين وزواق صارخ، تسألان ، عند حانوت بزاز، عن سعر حرير أو مخمل. و على ذاك الجانب، بطل رياضي ضخم وضع ركبته على الأرض و عقد جبينه ينظر إلى الأرض و أبعد من ذلك يمر قائد الشرطة و مرافقوه بالجزمات والسيوف. كان عصمت وغيرت وقدرت مجتمعين جميعاً وهو يرى الجميع؛ الأريحي، الدرويش، الشرفاء، مَن عندهم ذرة غيرة، ذوي الأعقاب الذهب ، الفتوات و الراقصات... الجميع.

كان يحب فردين[٨]، لا سيما عندما يكسر على رأس السفرة رأس البصل بجمع يده أو عندما يُفرغ، بلمح البصر، زبدية ثريد. وعندما

يقلب المقهى من أجل فعل مناف للعفة، ويخلع أخيراً جاكتته فيرميها نحو المرأة و يقول، و هو ينظر إلى الحائط: غطّي نفسك يا أختاه، أو ينهض من دون سابق إنذار، فيقف ويصفق. و عندما يُلجئ، من يد الدنيا، هذه العروس ذات الألف عريس، إلى جدار أو شجرة و يغني بصوت خافت، كان كرامت يتكدر مزاجه، و عندما تمرره أمه، بچارقدها[٨١] الأبيض و شعرها الرمادي، من تحت القرآن وتخلي وراء ظهره كاسة الماء المنقوشة بصور الورد و الطيور، كان كرامت يصب الدمع، و ذات مرة صرخ على غير انتظار بذلك النغم الفتواتي و الصوت الأبح: أمي العزيزة... أين أنت يا أماه؟

كان محباً مخلصاً لـ «ملك مطيعي»، أمام المرآة يعبس مثله، كان الحاجبان ملتصقين بالقبعة. ينادي كل امرأة حوله يا أختاه، وحتى يقول: أفلم يكن رجلك عديم الغيرة في البيت فجئت أمام أعين كل هؤلاء الغرباء من أجل رغيف خبز حصى[٨٢]، إلى قارعة الطريق؟

كانت المرأة تضيئ المصباح، تفتح چادرها و تضمه. يقول الرجل: لا إله إلا الله. يستغفر، و يرسل لعنة للشيطان.

كان يلتذ من تفهم «بهروز وثوقي». كل ما هنالك أنه كان يبدو في نظره غصناً أعجف. كان يقول: المسكين، لا هيكل عنده. لو سلموه بيدي شهراً واحداً سأسمِّنه. و مع هذا، فبسبب الغيرة التي أبداها في فيلم قيصر كان له عند كرامت «أحسنت» سمينة.

كانت الحميمية بين الأخ ذي الغيرة و زوجته تبرد. جاء الرفاق إليه، و لكي يخرجوه من هذه الحال جروه ذات ليلة إلى المقهى. كانت امرأة تغني هناك في الوسط، و ترقص. طرب الفتى و دعا الراقصة إلى

مائدته. شمَّت امرأة الفتى أن رجلها صار هوائياً فراحت تصب الدمع مدراراً. كانت تهز رأسها مثل بندول الساعة. تقرع ظهر يد بيد. كانت الصاحبات و الجارات يسلينها من كل جانب؛ يقلن: الرجال جميعهم هكذا. يذهبون ، يتزحلقون، فيعودون. و لكن المرأة ما كانت لتسمع. فجأة تجرجر الإظفر على الوجه و تلطم نفسها بكلتا اليدين كثيراً حتى يغمى عليها. تتراكض الصاحبات و الجارات كلٌّ إلى طرف. يجلبن مغلي السكر المذاب و ماء الورد و التبن- طين. و لكن أفتفيق المرأة؟ أخذتها جارة عجوز محبة للخير عند طارد جن و رمَّال. في هذه المعمعة تُقتل الراقصة. يأتي الفتى ، دون أن يدري، إلى محل اللقاء. قبل أن يسحب السكين من بطن الراقصة، تصل الشرطة. يقع الفتى في السجن. تقصُّد تآمري! يسب كرامت، مقذعاً، بلا انقطاع. وراء القضبان تأتي زوجته للزيارة و تبكي. يقضم الفتى ذؤابة شاربه بأسنانه. تتعهد المرأة بنذور وتدعو متوسلة. فجأة يظهر القاتل و يُطلق الفتى. عند المغرب يفتح باب البيت حاملاً منديل تفاح وعلبة كيك بالقشدة. في اللحظة التالية يقفان كلاهما عند ضريح الإمام الرضا[٨٢]. يأتيان إلى صحن الحرم، ينثران الحنطة للطيور ويشربان - عند علَم ضامن الغزال[٨٤] المثلث- على ذكرى الشفتين الظمآوين[٨٥]، ماء من كأس نحاس. يخرج كرامت منتعشاً من السينما.

في بعض الأحيان كان چادر الصلاة ينحسر إلى وراء ، و عندئذ كان نهدا المرأة، اللذان لم يكن إلا جزء صغير منهما مستوراً، يأسران مشدياً[٨٦] تافهاً يتمعج في المحلة كالدودة. كانت المرأة تروح أحياناً وتجيئ. تذهب إلى البقال كي تشتري لبناً أو «رشته»[٨٧] للحساء، أو

تذهب إلى الجارة كي تتعلم استعمال الخيط للحفّ. في البيت عندما تجلس إلى طست الغسيل لا تلملم نفسها بانتباه. ليلاً، في الكلة(*)، تأتي حركاتٍ غريبة، و تند عنها أصوات غير مناسبة. يقع ظلها على خام أبيض. كان كرامت قلقاً خشية أن يراها الجيران أو يسمعوا صوتها.

قريب الظهر كانت تحس الحرارة فجأة، فتركض إلى حافة الحوض. لشدة نفاد طاقتها كانت تتجرد من ملابسها في طرفة عين. تمد يدها فتأخذ كاسة من حافة مغسل الأرجل. تملأها من الحوض و تصبها على رأسها، و تحدث صخباً بحيث تعال حدّث و لا حرج. عندئذ تمد يدها على هذا الجزء من بدنها مرة و على ذلك الجزء مرات، ثم فجأة تسقط حصاة على الأرض. ترفع رأسها مرتعبة و ترى عند حافة السطح ظلاً. تطير الطيور، و يقفز شخص على السطح المجاور. تحلق الطيور في الأعالي ثم لم يعد ثمة إلا السماء و الطيور ومنائر المساجد، و إذا بالأذان يرتفع ويدير الفتى المفتاح في القفل. تركض المرأة ضاربة نفسها و لاطمةً هابطةً سلالم المطبخ و تجلس جنب الموقد المطفأ. يضع السيد الأخ - و قد أفلت شاربه من نكافه، و تهدل سرج بنطاله إلى قريب الركبتين، و ابتعد ذراعاه عن جانبيه - كيس العنب و قطعة ثلج على حافة مغسل الأرجل، و ينادي على الأم.

تمد الأم عنقها بچارقد العزاء من الغرفة خماسية الأبواب[٨٨] و يرقى السيد الأخ درجات الباحة إلى الإيوان. قبل أن يدخل الغرفة تنهض المرأة عن السجادة، تكبِّر سبع مرات، و تجعل نفسها فدى و قرباناً له، تحف به، و تقول: متى أراك في لباس العرس؟

---

* - الناموسية (الناشر).

يهدرالسيد الأخ من نهاية حلقه، ويقول: يجب أن تنشطي أنت، يا أماه!

تهز الأم نفسها، ترفع ذراعيها من الجانبين و تقول: السيد لا يقبل ذوقنا!

يرفع السيد الأخ يده إلى عرض صدره ثم يُنزلها، و يقول: أريد واحدة ريَّانة! و يتطلع إلى أمه من زاوية عينه. تضم الأم يديها من الهواء أمام صدرها و تقول: سأجد لك واحدة ريانة يا أماه.

تتدبر المرأة من المطبخ چادراً تلف به نفسها بإحكام، و عنما لا يبقى ظاهراً إلا إحدى عينيها، تعود إلى الغرفة خائفة مذعورة و تبقى لساعات يرتجف بدنها كله.

في الزقاق، مع كل ذلك السعي الذي كانت تبذله في تغطية الأجزاء المختلفة من جسدها، كانت أسوأ مناطق جسدها تنكشف دائماً بسبب حركة غير محسوبة أو أساساً لهبوب مفاجئ للريح، و كان ذلك مصادفاً دائماً مع برق عيني المشدي التافه و لسان لم يعد تحت سيطرة صاحبه. لهذا السبب كان يهمس في أذن المرأة بشيء، كأن يقول إنه يروح قرباناً لها. كان الدم يتوقف في عروق كرامت. كانت المرأة تخمش وجهها بأظفارها وتعض شفتها. وتقول مدردمة: لو عرف جناب أخي لسالت الدماء. كان المشدي التافه يتجاهل. بحذاء مدبب الرأس مطبق المؤخرة، يتغنج كالألعبانيين وراء المرأة ويكشف، بضحكة، حلقه الأحمر وأسنانه الذهب. كان يقول: رحت فداء لجناب أخيك أنا. تعرض المرأة طرفاً آخر من جسدها. الملابس عادة ضيقة وقصيرة ومفتوحة الصدر، ولو لم يكن ثمة ما يدعى چادر، لكانت عصمتها وعفتها وناموسها قد ضاعت هباء.

مرة أخرى ريح، وهذه المرة ينكشف واحد من تلك الأجزاء الحرجة من

جسدها. ينهض واحد من وسط صالة السينما ويقول: هيا اقفزي، تعالي عند عمك قبل أن يصل جناب أخيك!

يرفعون الأيدي أصبعين أصبعين. تضغط الأصابع على الشفة السفلى، تصير عروق الرقبة كالأسياخ، و يصمُّ الصوتُ المتتابع للصفارة الآذان.

ينهض كرامت، يلوح بالمنديل و يعربد. تتصاعد همهمة من الأطراف و في الأخير يغور الصوت.

تشتد الريح. ينفتل چادر المرأة في الهواء. تمضي الأصابع مرة أخرى نحو الشفاه. كان جناب الأخ يلف مع استدارة الزقاق.

يضرب كرامت كيس البزر بالأرض، يلتصق بكلتي يديه بالحافة الخلفية للكرسي الذي أمامه ويشتم مقذعاً و يقول مدردماً: تعالوا الآن فانظروا أية ضجة ستثير هذه الضعيفة ها!

المرأة منبع الإثم، و كم كانت الأفلام تعبر جيداً عن هذا، سبب حوادث القتل و الجرائم. قبل هذا كان إله ونبي. كان الناس مطأطئي الرؤوس مستقيمي الخطو. الآن ينتشر انعدام الناموس في المملكة كلها.

مراكز الشرطة أيضاً لا عمل لها إلا استيفاء الخوة من سيارات الحمل الصغيرة، من كسبة المحلة، من نساء الشارع. و ها اليوم أو غداً يصير لمثقال الغيرة هذا، الذي لا يزال يمكن العثور عليه عند أمثال كرامت حتى الآن، في حكم الخيمياء.

عندما كان يخرج من السينما، يكون متغير الحال دوماً. لم يكن يدري لماذا وكيف. يرى فجأة أنه واقف على ذلك النحو في ذلك الزقاق المظلم الذي تعذبُّ رائحةُ وحلِ جدولِ مائِه حاسةَ شمِّه و يلوِّح أحدهم بورقة

ذات خمسة ريالات في الهواء. يتقدم نحوه جندي إنكليزي ببرق عيني سكران.

في تلك الليلة الشتائية و في استدارة ذلك الزقاق المظلم، عند فسحة بيت لا بد أن صاحبه كان قد مات، استدار كرامت لحظة. كان الناس يمرون، إنهم مسرعون، يذهبون - و الأكياس تحت آباطهم - إلى البيوت، و الأشياء مشتعلة عند المدخل المضيئ للزقاق. حتى البخار المتصاعد موجة موجة عن صينية البنجر الكبيرة ، مصباح الضغط الذي يشتعل باستمرار مصوِّتاً و الرجل الواضع إزاراً على كتفه يقشر البنجر بالسكين.

كان كرامت يسحب نفْسه عند الحائط، و في هذه الحال يمد يداً صغيرة نحو الورقة النقدية: كانت الورقة تلمع مثل شيء فوسفوري. لا يذكر أنه كان تناول قبل هذا ورقة نقدية في قبضته.

كان قلبه مفعماً، و في وقت متأخر من الليل عندما وصل بيته تلفن لطلا. كان يريد أن يبدل شيئاً. لم يكن يدري أي شيء و لا على أي نحو. يتمنى أن يتكلم إلى أحد. بذلك النفس الساخن الذي كان له، مع أن كلامه لم يكن يساوي سكة تافهة، إلا أنه لم يكن يُتعب أحداً، و في وسط هذه الثرثرة قال فجأة: غطي وجهك يا أختاه!

ضحكت طلا مقهقهة وقالت: إنها تغطي وجهها.

سمع شخير الرجل الغريب من وراء التلفون. مد يده إلى جيبه على غير انتظار. لم تكن المطوى موجودة، بل كان في مكانها كيس بزر متبل بالكركم. قالت طلا برجفة بيِّنة في صوتها الشهواني: الآن ستغطي وجهها بيدها!

ثم كانت تطلق ضحكتها؛ كان صوت ضحكة طلا يصمُّ أذنه. قال كرامت: قسماً بناموسي...

فجأة سكتت طلا. قالت: لا أفهم، ما الذي جرى؟

كان كرامت يضحك قاضماً شاربه. لم يقل شيئاً. قالت طلا: مالك لا تتكلم إذن؟

كان كرامت الآن تخنقه العبرة، قال: دعيني أعالج بؤسي. و وضع السماعة.

لم يكن قد ارتاح لـ«داش آكل»[٨٩]. كان يقول: لم يترك مثقال اعتبار لجماعة الفتوات!

ثم كان يطبق حافتي الكفين، يمسكهما مثل كاسة في الجو ويقول: يجب أن تكون خصية الرجل على هذه الحال!

بدا له داش آكل أحياناً لا جرأة له. كان ينبغي أن يخطف مرجان فجأة أول وصولها. أخَّر و أجَّل كثيراً و في آخر الأمر أعطى يد البنت بيد شخص مهلهل ثم أطاح به أرضاً بذلك الافتضاح كاكا رستمُ مدخن الشيرة[٩٠] . المسكين ، وصل به الأمر أنه كان في الليل يناجي عصفوراً أخرس[٩١] . أفلم يكن هو من أخذ بضعة أشخاص من الدرب كي يصل إلى أقدس؟

- قولي لي من هذا الغندور عاقد الفراشة؟

لم يكن شر ذلك الشاب شمَّام الذرور قد زال حتى ظهر هذا الغندور. يجلس في زاوية ، يضع قبضته تحت ذقنه، و يمسح حافة قدح الشاي بأصبعه ويتفرس بكرامت سراً.

- إهـ...ـه. إن هذا المريب ينظر إلي كثيراً!

كان يتفرس في كرامت كما لو أنه لم يسبق أن رأى رجلاً فتى حقاً.

- ألم يكن لكلامنا جواب؟

كان الجميع قد ذهبوا. وقف كرامت و يداه في حزامه، و على وجهه تقطيبة، قبالتها. مرة أخرى تظاهرت أقدس بعدم معرفة الأمر. لم تعط جواباً صحيحاً. قالت : لا أعرفه.

- لماذا إذن عندما يأتي إلى هنا تملئينه إلى هذا القدر تكريماً؟... ها؟

رفعت المرأة كتفيها. رفع كرامت صينية الأقداح، بحركة يد، عن الطاولة فقرعها بالجدار.

- أقلب كاساتك وأكوازك ولخبطها جميعا يا أقدس، ها! كوني صريحة صادقة معي.

التصقت أقدس بالجدار. لم تكن قد سمعت في عمرها عربدة بهذا الصخب. سحب كرامت بشفتيه زاوية شاربه إلى تحت أسنانه. كان يدور حول الغرفة و يصب الشتائم كالحصباء. لم يكن يميز بين أموات أقدس وأحيائها عندما أعلنت:

- هو في شغل السينما. يريد أن يصنع فيلماً فيه جاهل[٩٢] ...

صارت عينا كرامت بحجم كاسة لبن: أفأنا قرد يا من لا أصل لك؟ تخبرين الناس كي يتفرجوا عليَّ؟!

كانت أقدس ترتجف كالصفصاف. ركضت حافية القدمين إلى الباحة. وقفت في الزاوية الأخرى لصق الجدار. أتم كرامت الحجة:

- لا تدعيني أراه بعد اليوم.

قال هذا بلهجة مصالحة؛ كان قد سامحها. تجرأت أقدس فمضت

نحـوه. تعلقت به من وراء. إن قـدرة الصـوت، و هيـبـة الوجـه، و هذه الشهوانية الصريحة، كان بمقدور ذلك كله أن يوفر لها ملجأ.

كانت ذريعة جيدة. ابعد كل الرجال عن المرأة، و راح يمتصها مالياً. حتى إنَّ حديثاً دار حول ماء التوبة[٩٣] و كتابة العقد[٩٤] . عندما كان يلمس بيده بدنها، بالرأس وبالصدر الممتلئين المائلين، كان جسده كله يلتهب. كان خال الصدر ذاك في عينه تماماً، ليل نهار. يقول مع نفسه: لا بد أن حورية الجنة هي هذه. كانت رائحة المرأة تبقى في مشامِّه دائماً حتى اليوم التالي.

تتشيطن أقدس. كانت كريَّة ملح. تضع الخيار المقشور في جيب كرامت. تصنع بانتهاء شعرها على الشفة شارباً، تُنزل قبعة كرامت إلى ما فوق أجفانها، تُخرج المنديل اليزدي من جيبه و ترميه إلى الهواء. يرتمي كرامت، منفرج الساقين، على الكرسي. مقابل وجهه تفيض عجيزة ضخمة بيضاء بصوت حادٍّ لطقَّة أصبع، مثل مرجل حليب. كان كرامت يتراجع متفاجئاً، و يقهقه مرة أخرى. يمسح دمع عينيه ويقول: كفى يا أقدس! وإلا هرستك، ها!

ترفع أقدس القبعة، تنحني، تدق يدها على فخذها وتضحك من صميم فؤادها. كانت تعرف معنى هذا الكلام. و عند ذاك يأتي تقليد آخر، تتلاعب بوجهها أو تنفخ حنجرتها فترفع الصوت طبقة أو طبقتين وتقول: و حق المولى أنا خادمك يا أقدس!

كان كرامت يزرقُّ من الضحك فيصهل و ينهض عن الكرسي. يقتلعها عن الأرض بيد واحدة، و هناك حيثما يكونان، ينيمها على الأرض و يهرسها على نحو لا يعرفه غيرهما.

كانت المرأة قد صارت فتية. لم يكن لسانها يتحرك بغير الأغاني المرحة. تنسى تلك الأغاني الحزينة جميعاً. كانت تريد كرامت، و لم يكن فيه غير عيب واحد: سهرات الليل، الجلوس في المقاهي، عدا عن مصروفه- كان حساب طاولته يبلغ ألف تومان في الليلة -، لم تكن أقدس تستطيع أن تكون حاضرة دائماً في هذه السهرات. و كرامت،... هو أيضاً لم يكن يتاح له أن يصطحب أقدس معه.

كان ورق الجدران المورد تحت النور الهادئ السائل من المظلات الحمراء و المزدوجة لمصابيح الجدران، عفونة و رطوبة الزوايا، اللوحات المطبوعة ومتدليات الثريات المدهّنة، رائحة ماء الكولونيا و العطور الرخيصة وصوت قرقعة الأقداح و الشرب، شرب الناس المر حيناً والبهيج أحياناً، رخوة الجذل و حسٌّ غريزي وعميق بعدم جدارة الدنيا. بهذا كله كان كرامت يبدأ في أغلب الأوقات ليلته في تلك الخمارة الحميمة.

في تلك الأيام كان يشمل من القدح الأول، و يدعو النساء للجلوس إلى مائدته. ما كانت أي امرأة في مقهى مرجان تقول لا لكرامت. كان كرامت يمد يده تحت الطاولة. كانت الشراشف النايلون فوق الموائد المربعة الخشب من الطول بحيث ما كان أحد يرى إلى أية أماكن ينقّل كرامت يده. كانت النساء يُرجفن أجسادهن وأعناقهن العارية، يزعقن بأفواه نصف مفتوحة و عيون سكرى، و يقهقهن على نحو خاص.

كانت المائدة تهتز. و في بعض الأحيان ينقلب قدح، تنبطح كاسة مازة أو تنزلق سيجارة نصف محترقة، مدخّنة، عن حافة المائدة إلى أسفل. الأعين محولّة، عضلات الوجه متهدلة، تندفع حرارة النار من ثقبي أنف كرامت.

كانت غنچه قد عاندت و هي تطلب من كرامت قولاً بأن يأخذهم في عطلة العيد إلى تركيا. منذ أن عادت بنت السيد منوَّر الكبرى من تركيا وحكت لها عن شوارع تركيا ومعارض اللوازم النسائية فيها و نسائها، صار كل فكرها و ذكرها إسطنبول. لم يكن لدى كرامت مجال. لم يكن حقاً يستطيع الاهتمام بكل شغله و عمله. لم تكن انشغالاته واحدة أو إثنتين. كانت تلك المخروبة، سجن أوين، تأخذ وقته كله. يحدث أحياناً أنه ينام الليل هناك أيضاً. طيب، ما الذي يمكن عمله؟

كان يريد أن يبيع المعارض. يكفيه المال الذي بيده ومعاملات العتيقات بين وقت و آخر. لا تستحق المعارض وجع الدماغ الناشئ عنها. كان رفاقه القدماء يحثونه على أن يتفاوض على شراء سويقين أوثلاثة.

في ليلة العيد باعها جميعاً. كما وهب معرض الفواكه أيضاً لأبي غنچه. إن القدر الذي عنده يكفيه - شكراً لله - إلى آخر العمر.

لم يكن له فراغ البال و الهوى للقيام بأي عمل. عندما كان يصل البيت كان ينطرح من شدة التعب. ما كان يتكلم بلا داع، وقد ضيَّق ذلك الخناق على المرأة؛ فكان يركبها كل مرة هوس ما، و الآن هوس تركيا.

وكانت دائماً أيضاً تلغو وتبكي. كان كرامت يقول: في السجن أعصر حفنة مهندسين و أطباء أربعاً و عشرين ساعة يومياً في يديَّ، و لكنني لا أقدر على هذه الجوفاء.

كانت غنچه قد ذهبت و حجزت تذكرة. وهي الآن زعلانة على كرامت. لم تعدَّ عشاء في الليل. أعطت كوكب بيتزا للأطفال، وأنامتْهم. ومهما التفَّ كرامت حول المرأة ودار، لم يُحدث ذلك أثراً و لا عاد بفائدة.

- ما عندك مال؟ عندك. ليس عندك أصحاب ومعارف في هذه الإدارة و تلك؟ عندك. ومع ذلك عليَّ أن أتحسر على ما يناله كل الناس!

كان كرامت يدير خاتم العقيق حول أصبعه و ينظر إلى المرأة.

- كما أنني لم أقل لك، تريد ابنة السيد منور أن تذهب في السنة القادمة إلى لندن. فيما لم أر أنا حتى دبي التافهة هذه.

أخيراً وافق. أعطاها حزمة أوراق نقد كي تذهب فتشتري تذاكر.

كانت طلا تقول:

- يجب أن آخذك إلى أوربا كي ترى. أية مقاه وأية خمارات، وأصلاً أية نساء!

(وغمزت، كما لو كانت جالسة الآن مقابل وجهه) ما لم تر هناك لن تفهم الدنيا.

كان فؤاد كرامت يذوب شوقاً، يقول: يجب أن أتعلم لغتهن أيضاً. ها؟

وتقول طلا: هذا عليَّ.

كانت طلا تكلم كل الأجانب بالأرمنية[٩٥].

- ماذا يصير «كرامت» بالأرمنية؟

تتلاعب طلا بوجهها وتقول الكلمة بلهجة غريبة. يأتيها كرامت من وراء رأسها، يحتضنها، يعصرها، فتفتح شفتيها بالضحكة المستغرقة إياها على مهل. يلتهب صدره من الالتصاق بظهر المرأة. كان واثقاً من أن هذا صيف دائمي.

بعد الظهر من كل يوم كان بيت المرأة مختلى كرامت. تخلي المرأة بيتها. تتكئ، كسلى مخدرة، فوق الكنبة على ساعد كرامت العريض الضخم. يأكلان الفستق ويشربان البيرة ويتفرجان على التلفزيون.

- التاج والعرش مدينان لهذا الرجل!

كان الشاه منفوخاً وينظر، بنظارة شمسية، إلى السماء ويدور شعبون بي مخ، في ميدان أمجدية، يدور،يدور...و...

شعبون بي مخ!

في اليوم التالي موعد ساحة الـ«گمرك»[٩٦]! في الـ«تويخانه»[٩٧] ينضاف عليهم عدة و في «مفرق الشاه» يتكاثف الحشد. في ذلك الصباح البارد من شهر«إسفند»[٩٨] كان الجليد لا يزال موجوداً في جداول الشوارع وعند أصول الأشجار، و في ميدان «كاخ»[٩٩]، حيثما تدير ناظريك تجد تصوير الشاه الشاب يضحك على وجوه اللافتات.

كان ما ينتقل من فم إلى آخر أن الشاه، الذي زعل من مصدق، يريد أن يترك البلاد. وها هو مصدق الآن في القصر كي يرحِّل الشاه.

تصل الحافلات المستأجرة واحدة واحدة، تُنزل الرجال. كان عند كرامت كيس قسائم «چلو كباب»، يعطي واحدة لكل من يصل.

جلبوا، بشاحنة صغيرة، لافتات، مرتين. و كان ثمة مقعد أيضاً.

كان يعلوه رجال أنيقون يرتدون معاطف سوداء و قبعات ؟، ويتكلمون بمكبرات الصوت اليدوية. كانت الأوداج تنتفخ و تحمر الوجوه، كما التوت الأحمر. كان ما هو موجود من البصاق يرذُّ على رؤوس الناس.

كان الحديث يدور عن الوطن و تآمر الأجانب الكامنين كي يأخذوا كل ما يخصنا. و لكن شاهنا الناصع البخت المحب للحرية، الذي ينتشر ظله مثل أب على رؤوس الأمة... كان كرامت يتهيج، يؤثر ذلك في عرق غيرته، يفقد الصبر، عندئذ كان الهواء يقل و تصير طهرون، بكل تلك الشوارع و الميادين ، ضيقة عليه. كان ينعر، يكافح، فيتراجع الناس. يغرز أصابعه في عنقه. يُميل رأسه إلى جانب و ينعر بذلك الصوت الطبلي إياه: لو قطعوا وريدي لا أدع صاحب الجلالة يمد رجله إلى خارج البلاد!

ثم يطقطق بهزة واحدة ودجه من جانبيه. صارت العينان حولاوين الآن و هو يديرهما نحو شيء مجهول في السماء. كان الناس يتراجعون مرة أخرى، و ينظرون إلى قوام كرامت وهيكله؛ إن رجولة أمة كاملة تقف أمامهم بالحجم الطبيعي. و ساقاه منفرجتان، يضغط كرامت بيده، في جيبه، على المطوى ويصب من شق الشفتين كلاماً خشناً مصحوباً بهواء ساخن كالسمّ.

المطاوي ! المطاوي ذوات الضامن، بمقابض صدف، مزينة بنقش امرأة، جبل، نجمة، نخل، بحر، زورق، و امرأة مرة أخرى! لدى أدنى إشارة تقفز النصال من الأغلفة. ليس بدون إذن شعبون، لا؛ ما كان مقرراً أن تخرج من الجيوب.

أحاطت الحافلات المستأجرة الآن بالقصر كله. ثم وصل آية الله

بهبهاني[100]. انفرج الحشد ومضى هو - راكباً - إلى داخل القصر كي يسترضي الشاه ويمنع رحيله.

كان مصدق قد اتفق مع الشيوعيين كي يُخرج الشاه من البلاد. الشيوعيين! كل شيء عندهم اشتراكي. حتى نساؤهم، حتى سراويلهم الداخلية، حتى... الشيخ الخرّاء كان يريد أن يصير شاهاً. كان شعبون قد أراه جريدة وقال: تأمله فقط! إن الشيخ الأفيوني تحت البطانية على نحو متصل.

كان مقرراً أنه ما أن يخرج مصدق من القصر حتى يضعوا حقه في كف يده. وضع كرامت يده ثانية على عرق رقبته. خزر شعبون و قال: عندما أعطي الإشارة.

لم يأت مصدق. قال أحدهم: فر صاحبنا. و قال الآخر: اختبأ في جحر فأر. و عندئذ صعد رجلٌ، يضع رباط عنق، المقعدَ و قال كلاماً ضخماً عجيباً. لم يكد ينزل حتى صعد أحد الصحاب. كان هذا يتكلم كالبشر معقولاً.

- صاحبنا وضع- خوفاً منا نحن الفدائيين المخلصين لصاحب الجلالة

- وضع ذيله بين ساقيه و... يا علي[101] ...هرب طاوياً الجادة.

تفرق الحشد. كان الجميع يركضون نحو مطاعم الچلو كباب. بقي ما لا يُعدُّ من القسائم بيد كرامت. باعها جميعاً بنصف قيمتها. تدبر المال اللازم لعشيَّتي جمعتين.

ليالي الجمعة، ليالي الصيف، غرام، لقاء. جادة شميران القديمة[102]. طريق صاعد ترابي، مقهى «بهِشْت طهران».مسرح كبير، مصابيح نيون ملونة. المصباح الذي يدور و يتبدل لونه. أخضر، قرمزي، ذهبي و أزرق،

و امرأة هناك في الوسط تغني وترقص، مَهْوَش! امرأة ذات بعل و نوع خاص من عدم الخشية. لا، لم تكن وقاحة. شيء من الصفاء الباطني لفتوَّة في أعمال وحركات امرأة. أكانت أختاً؟ أكانت ناموساً؟ ما كانت؟ أريحية! راعية عوائل لا معيل لها و لا أحد، لا حمى. كان المال عندها مثل وسخ راحة اليد.

- أهذا الكفل أعوج؟

- من يقول أعوج؟

- أم الزوج، أم الزوج!

- تناكفك، تعاندك!

تغني وترقص حاملة بقجة ولفيفة على نحو مائل، شفتاها بلون الكُلية حمراوان، و عليها قميص ساتان قصير و ضيق. في آخر الليل كان الفتوات يُفرغون جيوبهم على المسرح. إن كرامت لم يكن يشاطر تلك الليالي مع أحد قط. و كان هو نفسه الذي جلب ذات ليلة خبر وفاة مهوش إلى أقدس:

- كان لهذه المدينة رجل واحد، و قد مات هو أيضاً!

انقبض فؤاده من عدم وفاء الدنيا، فانطلق فجأة مغنياً. كانت أقدس تطوق عنقه بيديها و تضع شفتها على حنجرته. ترتجف حنجرة الرجل، من تحرير الصوت، تحت شفتي أقدس.

في أمثال تلك الليالي كان يشرب عرقاً كثيراً بحيث لو أنك أشعلت عود كبريت لاشتعل، و في الآخر كان يأخذ قِدْراً قدراً إلى فراشه. و بعد ذلك... فليس بيده لو كان عنده دنيا من الغَم في صدره، عندما كان يضع رأسه أرضاً، كان يحلم بسرب نساء، يحلم بصينية حلوى ذات قشدة، يحلم بعشرة أطباق چلوكباب.

و لكن كان ثمة أيضاً موت آخر جعل غم موت مهوش، و أي موت آخر، يبهت إلى الأبد: موت تختي، بطل المصارعة العالمي!

انفجر الخبر كالقنبلة. كان قد علق تصويره على جدار غرفته منذ قديم. الشاه و هو يشد شريط البطولة على ساعده. كان تختي جوهرة، كان سيداً كاملاً.

كان الجميع، صغاراً وكباراً، قد تحطموا. يتهامسون في آذان بعضهم بعضاً. الـ«ساواك»[١٠٣] قضت على أثره حسب أمر الشاه. كان تختي نور المدينة وعينها. شرب عرقاً و هو حزين و مكتئب حتى الفجر. كان قعر فؤاده مملوءاً صديداً. إن الشاه الذي أعاده إلى تاجه وعرشه المسحوقون الذين هم في الأدنى ، يرفس الآن. كان يفور فجأة. ينثر التفحيش على المكان و الزمان، فيما يده على فخذه. يحطم القناني الفارغة بالجدار، و يرفس كل ما يجده قريباً منه. لا قطعاً! ليست هذه البلاد مكان الناس الشفافين.

لم يكن قد فتح فمه حتى عنّفه شعبون. قال إن سياسة البلاد تعني أن المرء يضطر أحياناً حتى إلى أن يقتلع عينيه. ثم قال: إنك طفل جداً، لا يدرك عقلك هذه الأمور بعد.

سكت كرامت. لم ينبس بعد بحرف مع أحد عن موت تختي. كان في صميم فؤاده واثقاً من أن هذا الشاه الكثير الادعاء ليس صميمياً مع أي امرئ من أصحاب الأصول.

كانت هذه الميتة تختلف عن الميتات الأخرى جميعاً. في ذلك اليوم لم يكن في مقبرة «ابن بابويه»[١٠٤] مكان لإلقاء إبرة. و كان ثمة شبان أيضاً، شبان جامعيون. كان الأدنون و الأعلون معاً.

- أريد رجلاً ينتزع هذه.

كانت الـ«قامة»[١٠٥] قد انغرزت حتى قبضتها في الأرض. في تلك الليالي كان يركبه الأرق، و ذات ليلة قريب السحر عبر ظل تختي على الجدار، و طرق أذنه صوت ضخم و مشروخ: أريد رجلاً ينـ...

نظركرامت محتقن العين إلى القامة. وضع يديه العريضتين على وجهه و صرخ معولاً: ذهب كل الرجال، ذهبوا جميعاً، جميعاً.

ملأ تصويرُ أرملة تختي وطفله الذي في القماط الجرائدَ. كان كرامت ينظر إلى طفل القماط، يضع يده على صدره ويقول: أنا نفسي أصير غلاماً له.

كان قد مضى على طيِّب بضع سنوات وهو منشقّ. في تلك السنة، في شهر محرم سنة ٤٢ [١٠٦] وقع، مع مجموعته، في روح كرامت و باقي صبيان شعبون. تمزق عديد من الطرفين وتحطموا. كان كرامت قد غلبه التردد منذئذ. عندما نشرت الجرائد تصوير عبد القيس الصوص، قال له شعبون: أترى؟ هذا هو الشخص نفسه الذي أخذ مالاً من عبد الناصر فوزعه على صبية طيِّب كي يُعدّوا غائلة محرم.

أنهى موت تختي المسألة. لقد وضع خطّاً حول الشاه.

أمسك كرامت، وهو يسح عرقاً، بحافة يده، عرض الساعد و انحناء البطن وتهادى على أرضية حمام السونا المرصوفة بالخشب، و أخرج النفَس بقوة.

دخل الحاج. وضع الكاسة الزنكية على الأرض ونقَّل المنشفة فوق كتفه. قال:

- جلبت لك كالبتوس.

- أحسنت.

أفرغ الزجاجة في الكاسة ,وخلطها بأصبعه. ثم أفرغ الكاسة على الصخور الساخنة، فارتفع في الهواء غيم كثيف. رفع المنشفة عن كتفه و طرد الغيم إلى الأطراف.

- سلمت يداك.

- خادمك كلياً أيها الحاج.

كان قد ذهب للسونا أول مرة مع طلا. كان سونا خصوصياً... لفَّت المرأة المنشفة إلى أعلى صدرها، وأمسكت بيد كرامت.

- هو ساخن قليلاً، ها! لا بد أنك أنت تتحمله؟

قال كرامت:

- أيمكن استعمال الليف و الصابون أيضاً؟

ضحكت طلا مقهقهة، و فتحت باب السونا.خرج البخار الساخن من كل المداخن. دخلا مندفعين. لم يكن أحد يرى أحداً. كان كرامت لم يعد يطيق، منذ مدة، مرافقي طلا و أصحابها. لكنه لم يكن يجرؤ على إعلان ذلك. في السونا جازف. و من سوء الحظ أيضاً أنه لم يكن يملك لساناً مرناً.

- أتفرغين حاشيتك وأطرافك أم ألقي بهؤلاء الزعران بعيداً أنا نفسي؟

ألصقت طلا نفسها به، و وضعت رأسها على كتفه.

وضع الرجال، واحداً واحداً، ذيولهم على ظهورهم. لم يبق غير اثنين أو ثلاثة من ذوي الذيول الغليظة، الذين لم يكن يعرف لهم أثراً.

كان قد رسّخ قدمه في قلب المرأة. صار يمكن طلب شيء منها. أخرجت المرأة دفتر صكوكها من الحقيبة، سحبت صكاً أبيض.

ذهبت المرأة إلى أوربا. وحدها أم مع شخص آخر؟ لم يكن كرامت يدري. كانت قالت فقط: لا يمكن الآن أن نذهب معاً. سأعود سريعاً.

كان كرامت قال: إذن فأنا آخذك إلى المطار.

و كانت طلا قالت: لا، لا، ليس ضرورياً. أذهب بنفسي.

ذهب كرامت مساء إلى المطار. كان يؤدي نوبة حراسة. كان يدري أن الأمر سيشُّر ماء في مكان ما. و لكن حسناً، إن لكل نازلة طريق علاج. كان أوشك أن يغلبه اليأس عندما دخلت طلا قبل الطيران بنصف ساعة، مع رجل مهيب، إلى صالة المطار. كانت المرأة، و قد لبست الفراء على كتفها، و علقت قرط ماس في أذنها، تلتصق بمرفق الرجل. دخلا

مسرعين كلاهما. و كانت قبيلة من البشر تجري، منحنية محنية، وراءهما.

بعد بضع ليال تلفنت. قالت: سبق أن قلت إنني سأعود سريعاً.

لقد صدقت، عادت سريعاً مع طقم جاكتة و بنطلون ممتاز لكرامت. كانت قد جلبت أكبر حجم. و مع ذلك كانت جاكتتة صغيرة عليه.

كانت طلا محبطة، وضعت يدها على صدر كرامت، دفعته بهدوء إلى وراء و سقطا كلاهما على سرير النوم. قالت: هناك كلهم أنصاف رجال.

كان كرامت يضع مرفقيه على السرير متوكئاً عليهما، عندما وضعت طلا يديها على كتفيه. نام كرامت على السرير ثانية، راضياً مسلّماً. أمسكت المرأة شعره، سحبت رأسه إلى وراء و غطت وجهه بشعرها حلقة حلقة. شم كرامت الرائحة كالمجانين.

قالت طلا: رأيت؟ عدتُ أخيراً!

لم يكن لكرامت لسان في فمه. كان شيء، حار و حلو، يمر بجسده موجة موجة.

تجرأت المرأة فأخذته معها إلى وليمة أعيان. كان أغلب الرجال الآخرين، الذين يأتون مع سوّاقٍ و سيارات ليموزين و نساء سينمائيات إلى الوليمة، نحيفين هزيلين صُفْر البشرة. يأكلون كل شيء بالشوكة، وكان بينهم رجال عندما يصافحون كرامت ترتجف أجسادهم كلها. وكانوا جميعاً أيضاً من ساكني فوق.

رأى كرامت واحدة من سيدات الأفلام هناك أيضاً. كان لكلبها ربطة معقودة على رأسه بشكل فراشة. كانت تحتضنه، تتمدد على كنبة

وبيدها كأس و تسحب من مبسمها الطويل أنفاساً. راح كرامت يواصل التراجع إلى وراء و التقدم. و أخيراً قال: قولي لي، ألست فاطي أخت رضا فرفره في فيلم«العقب الذهبية»؟

ضحكت المرأة مقهقهة. غمزت لكرامت. ملأت صدرها بدخان السيجارة و غرزت أصابعها في صوف كلبها المجعد. نادته طلا.

كان النساء يؤشرن على كرامت، يقلن شيئاً بالهمس لطلا و يغصصن بالضحك وينظرن مرة أخرى إلى كرامت؛ إلى غضون جبهته، إلى شفتيه اللتين عندما يضحك بوقار تتموجان مثل تنورة عريضة الحافة، إلى عينيه اللتين تشتعلان، تحت هلال الحاجبين الكث، مثل قطعتي فحم، و تفور منهما قوة الفحولة كما من نبع.

كانت طلا تبدي عدم اهتمام. تنظر إلى كرامت و تضحك بلا اهتمام. كان تخيل النسوة قوياً. تخْدر أبدانهن من تصور ما يقوله رجل كهذا في خلوة لامرأة.

بعد العشاء كانوا يلعبون الروليت على مائدة كبيرة وسط الصالون. لم يكن كرامت يفقه هذه اللعبة. يدور حول المائدة و الجاكتة على ساعده. يُميل كتفيه العريضتين إلى أحد الجانبين و يحدق مائلاً و حاداً إلى الكرة الدوارة. يجر حافة اليد ممسداً الشاربين. و كانت قوة الفحولة تفعم الفضاء مثل موجة شالّة.

تبقى الكؤوس نصف المشروبة على حافة المائدة العريضة. تنشغل الحواس. يربح من لم يكن ربحه منتظراً. ينطلق كرامت، و ظهره إلى المائدة، إلى جمع الرجال. تنطلق الأنفاس. تثلج اللعبة.

كان الرجال، و السيجار بين أصابعهم، يرتبون برنامج رأس السنة،

أو يتفقون على موعد للسونا. يدور حديث عن كون منحدر تزلج «وَلَنْجَك» قصيراً، و عن كون منحدر تزلج

«ديزين» رائعاً. كان كرامت يضغط شفتيه و يضع سبابته على صدغه. ويعود، مقطب الحاجبين مغضن الجبين، إلى طلا وحلقة النساء.

كانت النساء يقدمن اقتراحات، همساً، لطلا. ترفع طلا، باردة الدم عازفة، كتفيها. لأي شيء كن يردن موافقتها؟ لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك. كانت تمد أصبعاً إلى جواهر عقدها.

كان كرامت يرفع رأسه فجأة. عندئذ يحل صمت. يستعرض النسوة بالنظر وفي الحال نفسه يدير سبابته بحركة قوسية حول حاشية بعيدة. كان الفضاء يتوقف ويتجمد في إطار صورةٍ جمعية. تحبس النساء الأنفاس بانتظار حركة غير متوقعة، كانت تلك علامة شيء ما.

عندئذ كانت طلا، الرافضة لسكوت طال بدون موجب، تبتسم مرة أخرى بلا اهتمام و تمسح بسبابتها الانحناء الظريف لعنقها.

يستعرض كرامت، بإدارة رأسه بهدوء للمرة الأخيرة، النساء بنظرة. عندما ينظر، عندما يتكلم، عندما يسير،عندما يحرك يداً أو رجلاً، كان كل ذلك أبرز علامة على شهوانية خالصة، أمر مئة بالمئة. عندئذ كان يشرب جرعة، ينفض رماد السيجارة. يدير كتفيه و ينهض، و الابتسامة المعوجة على شفته، بحركة مفاجئة.

كانت عيون النساء تراقب الحركات، و ينظرن الواحدة إلى الأخرى بحثاً عن معناها. و إذ يتعبن من الضياع يتنهد أخيراً و مرة أخرى تنطلق الأنفاس فجأة.

كان كرامت يذهب إلى وراء كرسي طلا.

تنهض طلا. كان الخفق المفاجئ للأجفان، وبعد ذلك النظرات المعبرة عن التعجب أو الرجاء و الموسيقى الهادئة، التي تعلن، من زوايا الصالون المظلمة و الخفية، ساعة الوداع. كان كرامت يسحب الكرسي إلى وراء. يرفع شال المرأة الحرير عن حافة الكرسي.

و فجأة صوت قهقهة الرجال من صالون القمار، أو صوت قرقعة أحذية الندل على حجر المدخل أو شوكة وقعت على الأرض في مثل هذا الوقت غير المحسوب تماماً. لم يكن أحد يسمع. لم يكن هناك أحد غيره. لا ينظر الجميع إلا إليه. حتى الارتعاش غير المحسوس لصدره بعد كل شهيق و زفير يترك أثراً باقياً في حواس النساء.

تضع طلا ثانية يدها على الماس الكبير لعقدها و تنقِّل أطراف الشال على كتفيها. كانت النساء منقطعات الأنفاس ثانية، و لا يفعلن غير أن ينظرن. حينذاك كان يحين وقت أن تنترك - نتيجة لمصادفة محض - بطاقة الزيارات لمؤسسة كرامت على الطاولة- مثلاً عندما يُخرج منديله كي يفسح مجالاً ليضع علبة السجائر و القداحة الفضية في جيبه - فتطلق النساء على عجل أنفاسهن المحبوسة و يتخاطفن البطاقة من أيدي إحداهن الأخرى.

كانت طلا تسعل. تكف النساء، و ابتسامات الاعتذار على شفاههن، عن العراك. يمسحن على عجل بأيديهن على رؤوسهن ومظهرهن، يسوين ياقات ملابسهن وتهدد إحداهن الأخرى في خفاء عن عيني طلا. لم يكن على بطاقة المؤسسة غير اسم و رقم تلفون. ومن هي تلك التي حالفها النصيب فربحتها ؟

كانت طلا تنظر بابتسامة صفراء ومتأملة إلى النساء واحدة واحدة

- لا نفور، لا انزعاج، لا شيء إطلاقاً! - و عندئذ تغادر الصالون بعنق متلع و خطوات طوال.

كان الشال الحرير يطير في الهواء من الجانبين. و كرامت يركض وراءها مثل طفل.

يسحب شقُّ الباب الزجاجي الدوار طلا إلى الداخل.كان كرامت يصل متأخراً لحظة واحدة فقط. تلتفت طلا وراء الجدار الزجاجي. تضاعف ستارةُ دمع بريقَ العينين.

يضع كرامت راحتيه على الزجاج، و يقدم وجهه إلى أمام. تدير طلا وجهها ، تخرج من الباب.

مرة أخرى الخطوات الطويلة للمرأة، وطفل ضخم مرتبك و لا يستطيع أن يلحق بها. تقف طلا عند السيارة وظهرها إليه، منتظرة بلا حركة. يفتح لها كرامت باب السيارة. تلم طلا ذيلها في قبضة و تركب من جانب، و لكي تتحاشى نظرة الرجل تغمض عينيها. تتغضن الأجفان. يلتمع خط الدمع في نور المصباح المنبعث من سيارة قادمة والذي أضاء حجرة السيارة للحظة فقط. تفتح عينيها ثانية، على سعة أكثرمن أي وقت. تدفع رأسها إلى وراء، وتمسح بحواشي الأصابع على حواشي العينين. يسب كرامت نفسه، و آباءه وأجداده، مقذعاً. كان كرامت يمرر النساء واحدة واحدة من تحت يده. لم تكن بينهن امرأة تنافس طلا.

و لا يستمر هذا أكثر من أسبوع. في انتظار ثمل كرامت المجنن تنظر طلا، أهدأ منها في أي وقت، من وراء نافذة غرفتها المنقوعة بالمطر، و تعدُّ - مدخِّنة سيجارة بعد سيجارة- السيارات و الناس. كان

يعود كل مرة عند المغرب، و كان ذلك الوقت الأكثر قبضاً للروح من بعد آخر لقاء.

كانت بهجت خادم المنزل البدينة الممتلئة تبشّر بالصراخ. يأتي صوت انكسار شيء و تركض، بلا اهتمام، بنعلين واسعين على سجاد الدهليز. و تحك قطة طلا الكشميرية، التي كانت كبيرة مثل نمر، نفسها بساقي صاحبتها. تنظر طلا ساكتة و بلا حراك إلى الشارع.

ينفتح الباب، يهتز هواء الغرفة، تسمع طلا خفقات قلب الرجل، التي كانت ككل شيء آخر له، بضعف حجم خفقات الآخرين.

خشخشة الأحذية ... و الصمت الذي فيه علامات من الحياء الطفولي. تحرق شفتا كرامت الساختنان كتفيها. يتضبب الشارع بكل نوافذه ، مصابيحه، و أشجاره، فجأة، و عندئذ كانت تستدير. ترتفع على رؤوس أصابع القدمين، وتضع يديها على كتفي الرجل و تلصق وجهها المبلول بارتفاعات صدره. يحترق جانبا أنفها. كان ثقل الجسد على اليد التي كانت حائلاً للخصر قوياً، و يطلق كرامت موجاً مخدراً يعبر بدنها كله. عندئذ، كان يمر في العروق شيء كالرصاص الساخن.

كان كرامت يزلق يده على عجيزة المرأة، ويقول : خادمك و المولى!

و كان ذلك كافياً بالنسبة للمرأة.

عندما كان يخرج من السونا يركبه دائما هوس تدليك أوس[١٠٧] تقي. من بين مدلكي حمام الـ«وزير»، كان الوحيد القادر عليه هو أوس تقي. واضعاً قدمه على ركبة كرامت، يشد الكتفين إلى وراء، بقوة تجعل التعب يخرج من رؤوس الأصابع. كان يطوق صدر كرامت من وراء بذراعيه، و يسحب فجأة جذعه إلى وراء، فكانت فقرات الظهر تصوِّت. كان كرامت يذكر ربه و آباءه. يجلس على ظهره، و يطقطق عرْق الخصر من الجانبين، يلف الرأس إلى يمين و إلى يسار بقدر من المفاجأة بحيث أن أي امرئ في مكان كرامت كان سيخسر عنقه.

كان كرامت بعد التدليك، ينهض - و قد استولى انحلال لذيذ على جسده - نشطاً، يتنهد فرحاً و يضع إنعام أوس تقي الكبير في كفه. في هذه الأواخر إذ صار صاحب شأن ومقام، كانوا يخلون الحمام من الآخرين، كما لو أن عريساً قادم، إلا من الزبائن الذين يرتاح كرامت إلى الحديث معهم. كانت الشربات وعصير الدراق و ماء الثلج المحلّى ومنقوع البزور تصل فصلاً بفصل. كان كرامت يمسك ذؤابة الثلج بأصبعه ويديرها حول الكاسة البلور ويشرب في جرعة واحدة، على ذكرى شفتين ظامئتين.

عندما كان يخرج من الحمام، يصير فرحاً مسروراً ونشطاً، كأنما ولد

من جديد. ولكن ما من شيء الآن يطرد التعب من بدنه. لم يكن ينام نوماً صحيحاً في الليل. كانت ضجة أولاد الحرام أعداء الثورة، عندما يخرجون من غرف التحقيق في السجن، تنتشر في الجو، و تبقى في أذنه لمدة أربع وعشرين ساعة. الحل أن يريحهم جميعاً مرة واحدة.

قبل الثورة كان يذهب إلى السونا دائماً في ليالي الإثنين، إلى سونا شارع «فِرِشْتَه»[١٠٨] كان يذهب مع رئيس الگمرك. ولكنه في الواقع لم يكن منسجماً كثيراً مع الناس الذين يأتون إلى السونا. كل الوقت كلمات فخمة ضخمة خارجية. بعد عشر مرات أو خمس عشرة، قطع ذهابه. كان الآن أكثر ارتياحاً مع الزبائن.

كان اعتضادي، رئيس الگمرك، امرءاً ابن أصول. يدبر له المزايدات. كانت النسبة التي يعطيها كرامت أدسم من نسب الآخرين. وكان له هو أيضاً ، بالطبع، شامَّة كسب. لكي تكتسب المؤسسة الجديدة رونقاً، سحب البنز و الشفروليت والتويوتا من الگمرك. بعد سنة أو إثنتين ازدهر شغله فصعد فجأة. انفتحت يده و جناحه حقاً. وصار شغله وكسبه في منتهى الازدهار. كان هذا في مؤسسة پيچ شمران.

أعطاها بيدها جيباً مملوءً بالمال. بلسان مدهون ملمَّع استغفل المرأة. صار الآن على وشك أن يمسك بيده عنان حياة طلا. لم يكن أحد يجرؤ على أن يقول له شيئاً خوفاً من طلا. لمن القرية جيدة؟ للعمدة و أخيه؟!

كانت «در وازه دولاب» و «مفرق شكوفه» إلى «ميدان الشرطة» شارعه. كان قد حقق اسماً. يحسب الشبان و الفتوات له حساباً. وكذلك الشرطة و مراكز الشرطة. كانت له عزة. يرفرف بيرق إقباله عالياً. ينجز المعاملات. يتدبر الدعاوى. يصير وكيلاً و وصياً، كان محل مراجعةٍ،

ضامناً معتبراً لبضع محلات. منذ أن بلغ الوجاهة في تلك المحلات، قلّت السرقات الصغيرة. بالنفوذ الذي كان له هنا و هناك، كان يربط الشبان في عمل ما. حتى أنه أعطى إثنين أو ثلاثة منهم رأس مال للتكسب. وعندما كان يحين الوقت يخطب لهم بنفسه ويوصلهم إلى الاستقرار. لم يعد الشبان يتسكعون كالسابق عند رؤوس الشوارع، تم الحفاظ على ناموس الناس. كان اسمه مثل طلّسم يفتح الأقفال، يحل العقَد، يزيل المشكلات عن الطريق. و ثمة أعمال فتوة أخرى أيضاً؛ في بعض الأحيان مساعدة لأرملة، تمسيداً على رأس يتيم، أو شيئاً من هذا القبيل. طبيعي أن الدنيا كانت مستجيبة له. كانت عنده على الدوام امرأتان أو ثلاث تحت اليد.

سرعان ما ضاق ذرعاً بتلك الولائم الأعيانية، فلم يعد يذهب إليها. لم يكن يحب الطعام الأجنبي. كان يموت في الكوارع و الچلو كباب السلطاني. يموت في زجاجة عرق خمسة وخمسين، إجانة لبن وخيار، بصل يُكسر بقبضة اليد فيصدر صوت ميتدة. لا، لقد تبدل الزمان. حتى الأفلام. علا الغبارُ «قيصرَ» و «داش آكل». لقد زال كل شيء الآن. آنئذ كان يوجد حتى ضرب حقيقي، في الشوارع، في الميادين.مرة ثانية نزل الشيوعيون إلى الشوارع. ولكن في هذه المرة لم يكن فتيان طهرون أبناء الأصول وحيدين. كان ثمة أتباع الـ«سومكا»[١٠٩]، و أفراد «الدكتور بقائي»[١١٠] .

في الليلة الفائتة تم تقسيم العمل. كان المنهج كالآتي: الإغارة على نادي حزب «توده» [١١١] و مكتب جرائدهم.

كانوا يرمون الأوراق حفنة حفنة إلى الشارع. يحطمون الكراسي

على رؤوس الأشخاص الذين يريدون منعهم. كان كرامت يعربد، و سكين سلخ الجلود بيده، و يطلب متحدياً شيوعياً. و عند المغرب، عندما يكونون قد حطموا كل شيء و أحرقوه، ينسحبون من ساحة الحرب.

أدت إبداعات كرامت إلى أن يصير له اسم بين فتية طهرون أبناء الأصول، و في الصيف التالي كان دوره مرة أخرى أن يُظهر، لبضعة أيام، مبادراته لمن كانوا يريدون أن يخونوا شاه البلاد.

في الصباح الباكر أرسل أكبر سياه في طلبه، فصعد على الفور من «سرْ چِشْمه»[١١٢] و أوصل نفسه إلى «بهارستان»[١١٣]. كان مصدق، العجوز الضعيف، يريد من مكانه ذاك نفسه تحت البطانية، أن يأخذ بيده صلاحية الجيش. لم يكن صاحب الجلالة يوافق. يبرطم مصدق ويقدم استقالته. ثم لم يفهم إلا أن شخصاً ما، يسمى جناب الأشرف، صار الكل بالكل ثانية.

كانت مجموعات من الناس تصل إلى الميدان، و يهتفون ليسقط «قوام»[١١٤]. كان كرامت و بقية الفتيان ينصتون، ينتظرون إشارة من فوق. وعندما صارت هتافات يسقط الشاه تجعل دم كرامت يغلي، صدر أمر الهجوم.

طلقات و صليات رشاش، ومع ذلك لم يحققوا شيئاً و اضطر الفتيان إلى التراجع. كانوا قد كتبوا على جدران المدينة، في كل مكان: الموت أو مصدق!

- انتهت دورتنا يا سي كرامت، منذ وقت طويل انتهت.

كانت الليلة الغائمة مضيئة. باردة والجليد الجاف يخشخش تحت الأقدام. و بخار الأفواه الذي بلون الدخان يستقر بعد لحظة مثل لمّة فضية

على الرؤوس و الوجوه. كانت حرارة الكاباريهات لا تزال في أبدانهم. أخرجت طلا مفتاح سيارتها من حقيبة اليد و وضعته بيد كرامت. لم يكن قد أدار المفتاح في القفل عندما قال أحد ما: يا سيد... مساعدة ، شيء!

كان الصوت معروفاً. أدار كرامت وجهه نحو الصوت. كان يقف قريباً منه رجل رث في معطف عريض و رثٍّ تحت نور كدر يشع من الأرض و السماء كليهما. عندئذ قال صاحب ذلك الصوت:

- بغدادي[١١٥] مخروبة، يا سي كرامت!

كان هذا «أحمد چكمه إي». الهادم بمفرده اجتماعات الأحزاب ونواديها. استدار كرامت. مد خطوة إلى أمام. ضرب بكف يده العريض على مرفقه وقال: لماذا انت على هذه الحال؟

استدار الرجل، كان ذاهباً عندما ناداه كرامت: إلى أين يا أحمدي؟... انتظر!

- انتهت دورتنا يا سي كرامت، انتهت منذ زمن طويل... ولكنك أنت رفعت نفسك إلى فوق... أرى ذلك...بلتُ على هذا الزمن، على ذلك الشاه ابن القحبة!

مد كرامت يده في جيبه. أخرج حفنة أوراق نقدية. وضعها في جيب أحمد چكمه إي العريض. خفض أحمد چكمه إي رأسه و مضى، و هولا يزال يشتم.

التصقت طلا بذراع كرامت: لنذهب.

مد كرامت خطوة إلى أمام. كان يضيع في الثلج و العواصف. الليل، البرد ، الوحدة... انعدام المال. ركل كرامت الأرض. قالت طلا مرة أخرى : لنذهب.

البرد، الوحدة، انعدام المال! كان قد أزال ذلك كله من طريقه. مد يده إلى فخذه. لم يعد ثمة أي مانع، في أي مكان، في طريقه. و لكنه حتى الآن... كان يواجه ثلاثة منافسين: ممثل سينما، عقيد في الساواك، وأحد كبار موظفي مكتب «أشرف»[١١٦] .

ينبغي التخلص من شرِّهم واحداً واحداً. كان يريد أسماءهم. لم تكن طلا لتكشف شيئا. عنيدةً ومتسليةً، تكتفي بأن تضحك. يفقد كرامت صبره. لكنه كان يراعي. يدري أنها لا تصح معها الغلظة.

استل الكلام من تحت لسان بهجت. كان اسم الممثل السينمائي «تُورَج». كان شائعاً على الألسن أن أشرف قالت إنه لا يساوي، من خصره فما دون، فلساً أسود واحداً. كان واحداً من ذوي الربطات الفَراشية المائعين، فلم تكن له سابقة مصارعة. لا بد أنه كان قبلاً بائعاً جوالاً في «لاله زار»[١١٧]، و لكن مهما يكن فقد كان له وجه جذَّاب. كان يخطف قلوب النساء بنظارته السوداء و شاربيه الـ«دوگلاسين»[١١٨]. كما أن ماله و غناه لم يكونا قليلي الشأن. كان يمثل في الأغلب الدور الأول. تحقق عنه. انطلق وراءه، وفي ظهر أحد الأيام استدار في أحد الشوارع الفرعية أمام سيارته.

زمَّر الممثل مرتين أو ثلاثاً. ترجل كرامت بلا مبالاة وسحب جسده الضخم إلى عند سيارته. فتح الباب، وضع يديه على سقف السيارة، وأحنى ظهره. أتلع عنقه. مد رأسه إلى الداخل وقال:

- أتعرفني ؟

كان كرامت يتصور أنه يعرفه. سبق أن التقيا في وليمة أو وليمتين و حتى أن أحدهما حيَّا الآخر. لكنه قال:

- لا أذكر حضرتـ...

نقف كـرامت أرنبـة أنف الممـثل، و أخـرج من فـمـه صـوت عـفطة. أمسك ياقة جاكتته، و سحبه بخفة و مهارة من السيارة. قال:

- صرت تكلمني بالنحوي الآن؟

راح الممثل يكافح. اصطبغ لونه بلون جص الحائط. قال كرامت:

- أيحب بدنك الضرب؟ ها؟ أضربك في هذا الوقت و هذه السـاعـة حتى ينفرج إطار جحرك!

كان الله يحبه إذ وصل شرطي مرور. قال الممثل:

- يا حضرة النقيب، يريد هذا السيد أن يقتلني.

دفعه كرامت نحو السيارة. قال له هامساً:

- اشطب بالقلم على طلا يـا سي ضـرطة! و إلا فـسـأحرق شـاربيك. هذا كل ما هناك!

و ألقى نظرة خازرة أيضاً على حضرة النقيب، و مضى نحو سيارته. كان حضرة النقيب يدوِّن رقم سيارته عندما مد كرامت يده إلى وراء، رفع ذيل جاكتته إلى أعلى وقال:

- أروح فداءً ليدك، خذ رقم هذا أيضاً!

صار الممثل أسداً أمام حضرة النقيب. حتى إنه قال:

- من الآن فلاحقاً شغلك هو مع القانون، ماذا ظننت؟!

نقر كرامت بأصبعـه نقرتين على صدره: القانون يقف أمام وجهك. أنا نفسي القانون.

و ركب السيارة . كان الممثل لا يزال يقرأ مغرداً. نسب كرامت صفة غير لائقة بالسيدة والدة الممثل، و كـان سيترجل من السيارة عندما سارع هذا إلى الفرار.

طيلة الأسبوع التالي كانت طلا زعلانة على كرامت. لكن كرامت كان يروح و يجيئ.

- ليس لك حق التدخل في حياتي الخاصة!

- إنك لا تزيحين هؤلاء الصيصان ذوي الربطات الفراشية عنك فأضطر أنا عندئذ إلى التصرف.

- و لكن هذه حياتي.

- حياتك أيضاً لي.

قال شعبون بي مخ:

- حسناً ما قلت لها. لكنك قلتَ إن ثمة واحداً آخر. ها؟...ما اسمه؟

قال كرامت ، و كأنه يذكر اسم الزاني بأمه: - العقيد معتمدي.

أخبر شعبونُ بي مخ بعد أسبوع كرامت بالتلفون: اشطب على اسم هذا. متين. لا يمكن منازعته. بلاطيّ.

وضع السماعة. عربد. مد يده على فخذه. شتم أهل البلاط جميعاً. كما لو أن البلاط كان تحرش بناموسه. مد يداً على الطاولة. اصطدمت الكؤوس بالجدار، كُسر وعاء القند، ارتدّت الدواة. لم يكن أعطى جزية لأحد في عمره كله الذي عاشه.

جاء الرقيب الإنكليزي في لحظة ثم ذهب. حتى حبيب رفع ستارة مؤخر المحل. كان النور يؤذي عينه. وضع ساعده أمام وجهه. كما لو كان يخشى هجوم شيء غير منتظر. كان يبحث عن مكان آمن. أأمن من شوارع طهرون التي صارت محتلة، أأمن من حانوت حبيب، أأمن من حديقة بتول، أأمن من مقهى بهشت طهرون... في ذلك الوقت رأى يدي

أمـه. يدي امرأة! من اليدين كـان يصّـاعد نور. قـال له أحدهم: هذه يدا أمك. دائماً كـان يقـول هذا. لكنهـا لم تكن موجـودة. وفي المرة التـاليـة أيضاً كان يصدِّق.

وضع يده في ثنايا شعره. شارباه يرتجفان و عضلات وجهه أيضاً. رن التلفون، مرتين و ثلاثاً. رفع السماعة.

- تعال، عندي معك شغل.

كانت طلا. مضى من مفرق الشاه إلى «دزاشيب» في سبع عشرة دقيقة فقط. عندما فتحت الباب، قفز طفل فجأة إلى الداخل. مضى نحو غرفة طلا وهناك انفجر باكياً.

تقدمت طلا مرتبكة مبهوتة. حدقت إليه العينان المندهشتان، تحت ظل كبَّة الشعر الغائمة التي غطت نصف وجهها، و هما أوسع منهما في أي وقت مـضى. كـان رمـاد السـيـجـارة، من رأس المبـسم - الذي كـان إبهامـها يمسكه تحت الذقن، قريباً من الشفة - ينهمر على السجادة. كانت الشفتان الحمراوان قد بقيتا نصف منفرجتين تعجباً. عندئذ، فجأة - و لو بتأخير قليل - ملأ ذلك الغيم ذاته، الغيم الذي كان يطوق دائماً بدن كرامت كالهالة، جو الغرفة. تقدمت طلا. مدت يدها فأبعدت شعر كرامت عن جبينه. كانت هي نفسها. اليدان نفسهما، يدا أم ، مدلَّلتان دافئتان، تنشران في الجو شيئاً يوفر الملجأ. أمسكهما في الهواء. غطى وجهه بيد المرأة. كان يريد شيئاً أكبر، من الكبر بحيث يستطيع أن يغطي بدنه كله. أو أن يصغر. يصغر إلى حد أن يتمكن أن يستقر في المحيط الآمن لحفرة دافئة...

أمسكت طلا ذراعه بكلتي يديها. كما لو كان عمود مزار. أغمضت

عينيها و ألصقت وجهها به. كانت تسمع خفق قلب الرجل المدوي. قالت: أدري أن ما من أحد يستطيع أن ينازعه. ولكن لماذا تورج؟ ألأنك تقدر عليه فقط؟... إنني أدفع جزية لجناب العقيد ذاك. أتفهم؟ جزية!

كان كرامت يصب الدمع مدراراً. كان عدم وجود الملجأ قد جعل وجهه مثل ولد صغير بريء. كان يعصر قبضتيه غضباً. يضطرب كفاقدي أمهاتهم، يرفس الأرض، يغرز القبضة خلال الشعر.

عندئذ لزم الصمت. دار حولها. رمى نفسه على الكرسي. مرة أخرى حركات من معدن و إسمنت! لم يكن هذا شيئاً تعوَّده. صفن في مقابله. برز الفك. كانت قوى هدامة، في أمواج غير مرئية، تملأ على نحو مخربٍ مجنونٍ لحظاتِ الغرفة واحدة فواحدة. كانت طلا تقف بلا حركة في وسط الغرفة.

مد يده فرفع عن المائدة مملحة بلور، أمسكها بيده. نظر أمام وجهه لحظة إلى قبضته المضمومة. كانت أرنبتا الأنف، أجفان العينين، الشفتان المضمومتان، ترتجف جميعاً... ضغط قبضته.

لم تكن طلا تحرك خطاها، تكتفي بالنظر. كانت عروق يد الرجل البنفسجية عند حد الانفجار. يزرقُّ الوجه شيئاً فشيئاً و تفسح حبات العرق، قبل أن تسقط، المجال لغيرها، و عندئذ كانت طلا تسمع صوت انكسارها.

كان كرامت لا يزال يشد قبضته و لكن موجة رضا، مهدئة ودافئة، كانت تتفتح شيئاً فشيئاً تحت بشرة الوجه؛ وقطرات الدم تقطر على السجادة.

كانت طلا واقفة بلا حركة. جعلها الرجل تبهت. قدرته و طاقته! لم يكن يمكن كسر تلك المملحة حتى بميتدة.

تقدمت إلى أمام. ركعت على إحدى ركبتيها قبالة كرامت. أمسكت القبضة الدامية بين يديها. لم تستطع أن تفتحها. اضطرت إلى أن تكتفي بتقبيلها. مسحت الدموع عن وجنتي كرامت. مسحت على شعره بيدها. نهضت . ألصقت رأسها بصدره و قالت، و الغصة تخنقها:

- ليتني لم أر دموعك قط.

قال كرامت وهو يدهق الدموع: أنت أول من يراها. لم يسبق أن رآها أحد قط.

ركض في ذلك الزقاق المظلم. كان الرقيب الإنكليزي يبتعد عنه مولياً إياه ظهره. الليل في كل مكان. وضع كرامت وجهه على الجدار.

قالت طلا بهدوء:

- و لا أحد؟

انتظر كرامت قليلاً. ألقى ظلٌ أكثر شحوباً منه في أي وقت آخر ضفيرةً سوداء من أمام الصدر إلى الوراء. كان وجهها منيراً. إن لها وجهاً عذباً. كان يرتفع من يديها شيء سليم ودافئ إلى الفضاء. و مرة أخرى مر إحساس رضا لذيذ في أمواج دقيقة و متتابعة من البشرة، من العروق و من جذور روحه. أحس الهدوء لحظة، كما لو أن شيئاً حلواً وعذباً ينزل قطرة قطرة من بلعومه و تنقله رخوةٌ حامضة حلوة في ثقل الجفون، للحظة، من حدود النوم. أدار فمه في الجو باحثاً عن ثدي أمه.

بعد كل رؤيا عذبة كانت تحين نوبة صحو. كانت اليقظة تجلب انعدام الأمن دوماً. ضغط. ولول و ألصق نفسه أشد بصدر طلا. تبلل مقدم صدر المرأة كله.

كأن شيئاً دافئاً واقياً، يفيض من صدر المرأة، أحاط به مثل ضباب

مـدلَّل. وكـان هذا يذكِّره بشيء. هنا و في هذه اللحظة بالذات، كـانت أكثر لحظات وجوده أمناً. تبدو حرارة هذه الأنوثة له، في لحظات قصيرة وبعـيدة، وراء ضبـاب سنوات طوال ضـاعت منه، مـعروفـة وتدفئ عـمق روحه. كان يعرف هذا الأمان. ولكن أين؟ متى؟... وضعت تلك المرأة، بوجه باهت، يديها المتربتين على حافة العتبة.

رفس الأرض ونعر: أمي روحي!... أماه!

نظف الرقيب الإنكليزي رأس آلته بطرف قميص الصبي ابن الاثنتي عشرة سنة، ثم رفع بنطاله إلى فوق.

قالت غنچه:

- ليتك أنت أيضاً تجيئ معنا. لكنا نمرح و الله. ما كان عندنا مزاحم. كنت سأضع الأطفال عند أمي. لو أنك تجيئ ما كنت أحس صغاراً قبالة بنت السيد منوَّر... إنها تقول لو أننا ذهبنا في سفرة نسوية نبتهج أكثر. و تقول إننا مهما أخذنا من مال فلن نخسر. أية ملابس! كلها بنصف القيمة...أأتكلم مع الحائط؟ أسمِعني «نعم» أو «لا» واحدة، شيئاً ما!

قالت طلا:

- مرة أخرى سفرة أخرى.

لم يقل كرامت شيئاً. أين تذهب؟ ما كان يفهم شيئاً من بواطن عملها. كان العمل الذي يقوم به هو هذا: في الظلمة يراقب النور. يدري أنه يواجه منافسين أو ثلاثة أقوياء. حتى إنه سمع أنهم أشَّروا عليه لعَلَم، وزير بلاط الشاه، أيضاً. كان يدري أن صاحب الجلالة يحب النسوة طويلات القامة بيضاوات البشرة.

قبل هذا كانت النساء بالنسبة له شيئاً مثل منفاخ مبيِّضٍ لا ينفعن إلا لشُغل إشعال كانون جسده... أو مكاناً لتفريغ رماد هذا الكانون كي

تنتعش النار المتلاشية. و لكن هذه؟ ...لا، كانت هذه الواحدة تختلف! إنه يريد هذه الواحدة حقاً وصدقاً. هذه الواحدة كانت عندها مراعاة للأصول أيضاً. هي صاحبة جيدة. رفيقة بلا غل ولا غش. لم تكن عندها ألاعيب و لا أحابيل، و قد قالت مرة لكرامت: أنا أيضاً نهضت مثلك من الرماد. تحملت ظلماً و جوراً. لكنني استطعت أن أغفر للجميع. للجميع، و من صميم القلب أيضاً.

جلب هذا للمرأة هدوءاً و راحة. كان كرامت يقف في ظلها لحظة. يظلل عينيه بيديه، يبحث في ذلك الأفق المنتشر عن نقطة مضيئة كي يفتحها كنقطة اتكاء... فلم يكن يجد. كان الشيء الذي يعرفه هو هذا: يْجب أن ينتقم. و من الجميع أيضاً. من كل أولئك النسوة اللائي تقرع أحذيتهن بأعقابها العالية على أسفلت الشارع مصوِّتةً، ويدَّعين جميعاً أنهن طيِّبات طاهرات من رؤوس الأرجل حتى مفارق الرؤوس. كان كرامت يشك في كل أولئك الرجال الذين يفغون دائماً رائحة ماء الكولونيا. و عندما يغور جيداً في بحرهم كان يعتريه الشك مخافة أن يكونوا حفُّوا تحت حواجبهم، لشدة ما كان كل شيء فيهم صافياً نظيفاً وحسب القاعدة.

كان ينبغي أن يهدم كل تلك البيوت التي تنتشر من نوافذ مطابخها روائح طيبة... طهرون الواسعة و تلك الأعصار الممتدة. متى إذن يحل المغرب بعد هذه الأعصار؟ كان يعبر من أدنى الأزقة خالي المعدة. كانت رائحة الأرز المطبوخ تدوخه...أفكان يوجد أحد وراء هذه الجدران يستضيفه في وجبة غذاء ساخنة؟ في منتصف الليل كان عسس الدورية، عند مداخل الحوانيت المغلقة، يوقظونه من النوم برؤوس أصابع

أرجلهم. في هذه المدينة الكبيرة ما من مكان، يغفو فيه صبي ابن عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة، إغفاءة قصيرة؟ كان السكارى يتبولون عليه في ظلمة الأزقة. والكلاب الجائعة تشم أجفان عيونه؛ كان كرامت يقفز مذعوراً من النوم. يمسح شفتيه بلسانه. فيحس ملح الدمع.

قرع الجدار بقبضته. نهض. أمام الرف وقف قبالة المرآة. أين الآن تلك الهيبة التي كان الرجال و النساء يرتجفون منها تحت وقع جاذبية نظرته. إن صاحب بؤبؤي العينين الملتهبتين هاتين، اللتين كان حاجباهما الكثّان و ابتسامته المائلة تجنن النساء، وقف- بكتفين متهدلتين - وبرم شفتيه قبالة المرآة. كان بكاء ودمع ذكرى بعيدة. إحساس الوحدة والغربة؟...لا، كان ذلك معه دوماً. لم يكن يريد أن يتذكر، ولأنه لم يكن يريد أن يمر الماضي أسطع منه في أي وقت آخر مثل تصوير على شاشة السينما أمام عينيه...مرة أخرى صوت قهقهة شعبون ورائحة لحم كفله المحترق الذي كان شعبون يكويه كي لا ينسى أبداً من الذي رفعه من الرماد، مرة أخرى ذلك الرجل شبه المختل - أبوه؟ - الذي يواجه الشمس باحثاً في درز سرواله الداخلي عن القمل.

كان الصبي ابن العشر سنوات أو الإثنتي عشرة سنة قد خرج تاركاً البيت. و الجنود يتركون البنادق على حواشي الطرقات ويهربون[١١٩] . في كل مكان يدور الحديث عن أن الجنود الروس و الإنكليز سرعان ما سيصلون طهرون.

كانت طهرون كبيرة واسعة. فيها «لاله زار» ونسوة بلا حجاب. فيها «بهارستان» و مقاهي ومطاعم. فيها دور سينما وميدان «توپ خانه»[١٢٠] . فيها «متنزه المدينة» و محطة القطار و يمكنه أن يضيِّع نفسه، ما كان أحد يعرفه. حبيب ودكان قِصابة!

جره حبيب إلى الشغل. أقام عنده أربع سنوات أو خمساً. لم يكن يأخذ أجراً. كان وضعه هناك أكل و عمل ومبيت. كان يهيئ ذخيرة شيئاً فشيئاً عندما قعد عزيز القرقي تحت قدميه كي يخْلي حصالة الدكان.

بدأ من كنس الدكان و رشّه بالماء ثم علّمه حبيب عزل العظم عن اللحم. أبدى كرامت استعداداً. بعد سنة واحدة أو سنتين كان يسحب الكعاب و يعزل الكلية وفص الفخذ عن ستار السمن و هو مغمض العينين. بوجود كرامت ما كان حبيب يحس نقصاً، و في الآخر تسلط على شغله بحيث أن حبيباً سلمه الدكان كلياً.

كان الزبائن يعترفون به. من يده فقط ما كان أحد يرفض أن يأخذ الأقسام الرديئة من لحم الغنم. حتى صاحب المقهى و محل الكباب كانا راضيين عنه. بوجوده لم يكن شغل قصابة حبيب ليبور، ليس هذا فقط، بل كانت كل حصته اليومية من اللحم الذي يجاز له بيعه تنفد قبل أن يحل الظهر.

كان يُظهر ذوقاً؛ يحك ميزان المحل بتراب الآجر و يلمِّع قيشاني الجدران الأبيض. يقطع الإلية إلى أربعين ضفيرة، و يتوج فصوص اللحم ويزين جثث الحملان الصغيرة بزهور ورقية و يضع في مجاريها النارنج ويعلقها أول الصبح في مسامير الدعامات. و عند المغرب يزين الحانوت الخالي بمصباحي ضغط أو ثلاثة وبضعة أغصان زهور يجعلها حلقات حول المسامير، كما حجرة عروس.

في أول المساء يحشر حبيب حفنة أوراق نقدية من الحصالة في جيبه ويذهب إلى البيت، ويبقى كرامت و كل تلك الروح التي أزهقها من الصباح.

عندما كان حبيب يذهب يظهر عزيز القرقي. كان قد وشم معصمه؛ وجه امرأة. يقول: أهواها.

المرأة! مرة أو مرتين عند محل القصابة هذا، في بعد ظهر أحد الأيام الحارة و الخالية تقريباً، عندما كانت امرأة قد جاءت و رائحة طيبة...أو نظرة ما، حالة ما؛ أو بلوزة سقط زرها في مكان قرب السرة، وعندما استدار و مد قطعة اللحم الملفوفة بالورق نحو المرأة...

كانت ستارة السمن تذوب. وتصير عضلات اليد و الساق شيئاً فشيئاً صلبة بارزة و عروق الساعد الخضراء منتفخة دائماً منذ بعض الوقت. كان أصل الصوت قد انشرخ كلياً و صار جهيراً ، و عندما كان يفكر بشيء، كان خطًّا عبوس يلتقيان أحدهما بالآخر وسط جبينه بالضبط بين الحاجبين، و في هذه اللحظات ذاتها حدث أن يرفع رأسه مرة أو إثنتين فيرى امرأة ألقت نظرها إلى أرضية الحانوت. يبتلع عزيز القرقي ريقه بصعوبة و يتكلم عن المبغى، عن الخوانم الجميلات، جميلات بحيث يمكن النوم معهن بورقة من ذوات الخمسة الريالات. وذات ليلة أخرج من جيبه الداخلي زجاجة، فك غطاءها و أعطى جرعة لكرامت. من أول الحلقوم إلى انتهاء الأمعاء التهب ناراً.

كان عزيز القرقي يقول إن حبيباً تصيّغ [١٢١] «عزيزة» ابنة مصطفى اللاشي، التي طلقها زوجها ثلاثاً، و استأجر غرفة في محلة اليهود أسكن فيها المرأة.

يقول: و الآن تتصبب أنت عرقاً فيما سيئ الأفعال ذاك يتسلى.

قال وقال كثيراً حتى امتلأ كرامت أخيراً. صمم على تغيير لونه، فلم يعد يخلص في العمل. إن الحانوت الذي كان إذا ما سال زيت على

أرضيته يمكن الانحناء و جمعه، صارت الريح النتنة ترتفع الآن من كل أطرافه وزواياه. سخط الزبائن شيئاً فشيئاً، كان يعطيهم حفنة قمامة وقش لا أكثر. سوء بيع، تطفيف، ثم...

قالت طلا:

- هذه السفرة أطول قليلاً.

وقال كرامت:

- ماذا أفعل أنا إذن؟

قال هذا على نحو جعل الدمع ينهمر من عيونهما معاً. ذهبا في الصباح التالي إلى المحضر، صار واحد من بيوت دزاشيب باسمه.

لم يكن يواتيه النوم ليلاً. كانت طلا تنام مثل ملاك؛ بريئة و هادئة، تحت نور القمر. لا يني كرامت ينهض و ينظر إلى المرأة. من بين فرجة الشفتين كان نفسها يجري ,بلا توقف، مثل بخور معطر. و عند السحر لما انطبقت عيناه أخيراً، رأى أمه. في صحراء فسيحة، بلا ماء ولا عمران، قد أجلست كرامت على صخرة وهي تمضي. كان كرامت قد اعتراه الخوف. نادى على أمه. لم يكن يستطيع أن يقوم فيجري وراءها. كما لو أن أحداً سمَّره. كانت أمه قد عادت لحظة من منتصف الطريق. فتيَّة وجميلة. نادى أمه مرة أخرى بخوف و فزَّ من نومه.

كانت طلا نصف ناهضة وتنظر إليه. قالت: كنت تحلم.

تقلب كرامت، جمع ساقيه في بطنه، ورفع إبهامه نحو فمه. مسحت طلا بزاوية ملاءة على جبين كرامت، و كان لا يزال يمص إبهامه.

- دائماً تناديني.

كان اليوم التالي موعد الحركة. قالت طلا: لا تنظر إليَّ هكذا. ستة أشهرو أعود.

- و لكن...!

قبلت طلا سبابتها و وضعتها على شفتيه. رأى كرامت عيني المرأة الحمراوين فسكت.

أغلقت طلا باب السيارة، تحرك السائق. بقيت آخر نظرات كرامت بلا جواب.

تمت الستة الأشهر. كانت تتلفن أحياناً بالطبع. لم تكن تعطي كرامت رقم تلفون.

- ليس عندي مكان ثابت.

- أفشيء كهذا ممكن؟

- لا تصرخ برأسي إلى هذا الحد. فليست حريتي بيدي!

- متى تعودين إذن؟

- متى؟...لا أدري.

صارت الستة أشهر سنة. كان كرامت يحس الوحدة. لم تعد أية امرأة تشحذ نار بدنه. يعود إلى البيت متعباً غير واع و وحيداً. في الطريق يأخذ سيخيْ كباب أو ثلاثة وعضدي ريحان أو ثلاثة. يعد لبناً وخياراً ، و يأكل على هون. و كان قد اشترى طير حب أيضاً. في آخر الليل كان يناجي القفص بعينين باكيتين.

كان وحيداً. ممن يجب أن يسأل عن أخبارها؟ رجال دعوات الأعيان؟ كلا، لم يكن من جنسهم. الرجال الذين ينظفون جحورهم بمناديل معطرة. كان بينهم شاعر و كاتب، طبيب و مهندس، رسام و مزيكجي، ممثل ولاعب كرة قدم، طيار و مغنٍّ، معلم جامعة وكاتب صحفي، تاجر وصاحب معمل، و قد طيَّرت ادعاءاتهم الدنيا. كانوا يستطيعون أن

يكلموا الأوربيين بالأرمني. كانوا متعلقين بالبلاط و الساواك، وكان آباؤهم أو آباء أجدادهم عقداء. يلعبون التنس بجوارب نسائية بيضاء. في المسبح ينامون على حشية هوائية، و على عيونهم النظارات (إن لم يكن واهماً كان اسم هذه النظارات «ريْ بُن»، فلا بد أنها محصول مشترك بين شاه عبد العظيم و ألمانيا الغربية)[١٢٢]. يأكلون سرطان البحر و الكافيار، و بعد الحمَّام يمسحون أبدانهم بالكْريم. كان أقزام الرجال لا يبقون في حوض ماء السونا البارد إلا بما يكفي لأن يعد المرء حتى الثلاثة. يقبِّلون النساء، بحضور أزواجهن، على وجوههن، و يذهبون إلى حفلات الـ «كتلت»، و يشربون قهوة الـ «كابوت چينو» و قهوة الـ «إكسپرس»، يدخنون الغليون بتبغ إفرنجي، يلبسون قمصان تول وكالنساء يغطون أفواههم عندما يعطسون، و بدلاً عن المنديل اليزدي الكبير الذي يمكن تمخط مخطة رنانة فيه عندهم مناديل بيضاء بقدر كف اليد ، و في الجيوب الصغيرة أعلى الجاكتات،... كان يصيبه الغثيان منهم جميعاً. إن فحولة هذه الأمة الصريحة تنحدر نحو الأنوثة تحت ضغط العروض الأنثوية للرجال، عطورهم و ذرورهم الغالية، الجواهر و الأغذية الإفرنجية، الألسن الخارجية و الـ «ستيك» الذي لا يمكن أكله إلا بالسكين و الشوكة، التنورات القصيرة و البنطلونات الضيقة، الجامعات و المكتبات، و الخلاصة: تحت ضغط التظاهرات و الادعاءات الطهرونية. كانت المقهى و الزورخانه ومحل تدخين الشيرة قد أعطت أماكنها لملهى ليدو، منحدر تزلج ديزين و بولينغ عبدو. وأعطى دكان قماش مش[١٢٣] حبيب مكانه لمعرض شارل جوردان. و أعطت الغيرة مكانها للتراقص. و أعطى ركوب الحمير إلى جانب النهر و صفاء البيدر

لدخان ونعيب شوارع المدينة. تلك...تلك جميعاً ضاعت ، و بدلاً عنها... أغمض عينيه بنفور. مر الرجال للمرة الأخيرة فشم عندئذ رائحة ماء كولونيا و رأى الرقيب الإنكليزي يطوي في الهواء ورقة نقدية بين أصبعيه. إن رائحة الكولونيا تذكِّره دائماً بهذا الرقيب الإنكليزي إياه. الرائحة التي ربما كان شمَّها لأول مرة تلك الليلة. ثم رائحة لحم محترق...ضرب قبضته باليد الأخرى ونعر. أُخرِّبهم جميعاً، وحق هذا النور جميعهم. في سنة سبع و خمسين[١٢٤] وفَى بالقسم الذي أقسمه.

رجال طهرون!... ينفر منهم جميعاً. إنهم يلبسون لباساً داخلياً نسائياً، يطيلون شعورهم، يلبسون بنطلونات ملتصقة بالجسد و قمصاناً ضيقة موردة. كانوا جميعاً مأبونين.

من انعدام غيرة رجال طهرون ملأت النسوةُ لاله زار وزقاق «برلين»[١٢٥]. إن أحذية نساء طهرون ذات الكعاب العالية تصوِّت مطقطقة. خطوط حمالات صدورهن تبين من تحت بلوزاتهن. و تنوس أغراضهن، كما حمل هودج، على عرض الرصيف. وفي الصيف، تتصاعد من تجاعيد تنوراتهن و تحت آباطهن في الهواء روائح تجنن الجميع. ينظر أبناء الأطراف إلى هذا المعرض ذاهلين مبهوتين. لم يكن ثمة مفرٌّ غير أن ينزلوا إلى الميدان. أبناء المدن البعيدة بغيرتهم، بعلمهم، بعملهم، باحترامهم الأصول، بعبادتهم للناموس! فليحيا أبناء الأطراف!

كانوا موجودين في كل مكان، و أكثر من كل مكان في حاشية طهرون. كانت طهرون كبيرة كبر بحر. فيها ألف شارع مسفلت، و مئة ميدان مزروع بالزهور وفيه نافورة ماء و تمثال. كان في المدن البعيدة شارع پهلوي[١٢٦] واحد و ميدان ٦ بهمن[١٢٧] واحد. لم يكن ممكناً إنشاء

كل هذه الشوارع و الميادين في المدن البعيدة، و لكن يمكن تخريبها جميعاً في طهرون.

كانت ميادين طهرون ملأى بالتماثيل العارية التي على أكتافها أجنحة و ينصب من أفواهها الماء و تمسك بأيديها المشاعل. كان أحدها يركب ظهر حوت، و الآخر ظهر سمكة، و يجلس أحدها على صخرة.

في أول الليل تضاء المشاعل، و ترش الفوارات الماء. يركض الأطفال فوق النجيل و يكسِّر الشبان البزر. في برودة أول المساء و في زوايا الميادين الخالية ينزلق ميْل مفاجئ، مخلوط برائحة الماء و النجيل، مخلوط بالأرجل العارية لنساء دور السينما ومخلوط حتى بالعنق الطويلة و الظريفة لإطار تصوير الإمبراطورة، مما يجعل أبناء الأطراف يستقيمون ثم يسيل سائل لزج عن أكتاف التماثيل إلى أسفل؛ يتندى مقدم سراويل أبناء الأطراف و عندها يحسون راحة على نحو مفاجئ.

و بعد ساعة يبدأون البحث، ومنديل الخبز تحت الإبط، في الزوايا والأنحاء عن مكان نوم و محل تبوُّل، وعند الصباح في حواشي الميادين، لكي يركبوا ظهور شاحنات البنَّائين الصغيرة، يمزق أحدهم قميص الآخر. ومن يتخلفون يقضون النهار كلهُّ عند حافة الجداول يخيطون الدروز الممزقة، فتمتلئ طهران رائحة وسخ وعرق.

و لكن لا،... إن كل نائب في المجلس و وزير و أمير في الجيش من أبناء الأطراف. كان رضا شاه من أهل «سواد كوه»، «هويدا»[١٢٨] من أهل «جهنَّم دَرَّه»، و«عَلَم»[١٢٩] من أهل «بيرجَنْد» و أم «أحمد شاه»[١٣٠] من أهل سوهانك. و ما الذي عند الطهرانيين؟ نفخة الغرور فقط! يسمون الـ «نان»[١٣١] «نون» ، ويسمون الـ «جان»[١٣٢] «جون» و يسمون

الـ «كـان »«[١٣٣]كـون» . ثم إنَّ هذا ليس شـيـئـاً. إنهم يسـمـون الـ «چوب»[١٣٤] «چوق»، و يقولون للجوب جوق، وللبوب بوق[١٣٥]. و فوق هذا كان الجميع يتمنون أن يتكلموا كالطهرونيين.

في الصباح الباكر كان الكناسون - الذين أوصلوا أنفسهم منذ بضع سنوات أبكر إلى طهرون - يوقظون أبناء مدينتهم من النوم وينظفون - بجامعات القمامة و بالمكانس، والمناديل على أنوفهم - آثار الليلة السابقة: قطع براز من الأصفر الكهربي إلى القرمزي الرمّاني، من وراء الأشجار و منعطفات الأزقة. و كان الضيوف، بانتظار أن يتعلموا طريقة الشغل و الكسب في المدينة الكبيرة، ينشئون صداقات مع أفراد الشرطة و الشحاذين، و يقدمون لهم، من جيوبهم، معجنات و ثماراً جافة.

في طهرون كانوا يقيمون جسراً هوائياً، يحفرون نفقاً تحت الأرض. من أجل راحة أبناء المدينة ينشئون مراحيض عامة، تقدم شرطة المرور لسواق السيارات سكر نبات «مينو»[١٣٦] ثم إنَّ كل مكان آخر كان مملوءاً بالـ «پيكان»[١٣٧]. في أول المساء كانت كل مفارق الطرق تنسدّ و يرفع بوق السيارات الممتد طهرون فوق الرؤوس.

في كل يوم هناك احتفال؛ احتفال نجاة آذربايجان[١٣٨] من قبضة الشيوعيين عملاء الاتحاد السوفييتي، حفل النهضة الشعبية في ٢٨ مرداد [١٣٩] و إسقاط الخائن مصدق، حفل ثورة الشاه و الشعب[١٤٠] ، حفل الألفين وخمسمئة سنة على قيام الإمبراطورية، حفل خمسين سنة من عمر الملكية البهلوية، حفل الختان الذي تقيمه العليا المخدرة، حفل...كانت طهرون تغرق في صور صاحب الجلالة و العلَم ثلاثي الألوان، و يتوفر طعام الإذاعة و التلفزيون و الجرائد الجديد لمدة أسبوع. طبيعي أن

التلفزيون لم يكن عنده وقت لحك الرأس، مع أنه كانت لديه قناة خاصة للأجانب، و قناة للمغتربين يشاهدون فيه فيلم «صمد» [١٤١]، و قناةأيضاً للطهرونيين كي يشاهدوا الأفلام الأميركية.

مع هجوم المهاجرين لم تعد أرض طهرون كافية لحفْر حُفَردورات المياه، فكانت الحفر تتنافذ فيما بينها؛ كانت طهرون تسبح على بحيرة من الخراء. كانت هذه البحيرة الخفية تفيض، عند أدنى هزة ، نحو «نياوران».

كان الشاه، و إبهامه في جيب الجاكتة الصغير، ينشئ، بمساعدة الكارتلات النفطية، وراكباً الحوّامات الأميركية، فيلم «بوابة التمدن الكبير» [١٤٢] . يبدأ الفيلم بعرض الضوء و الصوت في خرائب «تخت جمشيد» [١٤٣] ، بسيمفونية آندره كاستلو. فجأة يقف، بحجمه الكامل أمام الكاميرا. يسخر من الغربيين، يقول لهم: انتم يا زرق العيون! كان يطلب منهم، أحياناً، من باب حب الخير، أن يصلحوا أنفسهم. لم يكونوا يصغون له. (اضطر بعدها أبناء المدن البعيدة بالطبع، في شتاء سبع وخمسين [١٤٤] إلى شدة العمل). كان للفيلم فلاش باك إلى مرحلة طفولة الشاه، أيضاً، عندما أوشك أن يسقط عن الحصان و أمسكت يدُ قديسٍ نورانية بين السماء و الأرض بظهره. كانت الإمبراطورة ترتدي چادر تول أسود. تُميل رأسها كأمهات الموتى و تقف أمام أضرحة الأولياء. لمعان المرايا، قبة الذهب في بطن السماء الفيروزي، خفق أجنحة الطيور. وتدعو الملكة المسرح الطليعي أيضاً: عرض «خنزير وأطفال و نار» [١٤٥] مع توابل إباحية. كان خبراء الفن العالميون الكبار يشاهدون، من واجهات الحوانيت، العروض التي تؤدى في الشارع. ألقى واحد شقفة آجر. جاء

الشرطة إلى الميدان. شرع الناس بالفرار، قلبوا- في طريقهم- عربة بائع جوال، و أطلقوا شعارات يعيش و يسقط. مساءً لم يكن في رواق مسجد المدينة مكان للجلوس.

و كان «هويدا» يصنع، بالعصا و الغليون و زهرة الأوركيدة [١٤٦]، فيلماً آخر. و العمال و النساء و الطلبة الجامعيون أيضاً. لم يكن أفراد التنظيمات المسلحة يصنعون فيلماً، بل كانوا من أنصار مسرح الشارع؛ يحملون مسدسات، يقتلون المستشارين الأميركان و العقداء الساواكيين، يهجمون على المصارف وفي الآخر يفجرون مكتب مجلة «هذا الأسبوع»- التي تنشر صور نساء عرايا. كان «اتحاد الطلبة المناضلين في الخارج» يصنع فيلم «مقلاة آريامهر»[١٤٧] ، الذي يصور طريقة التعذيب البرازيلية؛ حيث الخوذة العسكرية و لعبة التعادل وسائل حديثة لتعذيب السجناء السياسيين. و يعرِّج هذا الفيلم أيضاً على مدن الصفيح، على منخفضات أدنى المدينة. يعرض الحفاة و المشردين: المخاط فوق الشفاه، يلوكون قطعة خبز يابس. وتنسحب النساء، ببطون نافرة، إلى وراء، محتميات بالجدار. يجلس الرجال جماعة جماعة في الظل، و يشربون شاياً كثيفاً، ويتعاملون بيعاً و شراءً بالأموال المسروقة، و يخططون للجرائم.

في طهرون كان كلٌّ يصنع فيلمه الفارسي الخاص ويشكل أبناء المدن البعيدة حشود كل هذه الأفلام بأجور زهيدة. على سطح بحيرة خفية كان الحباب يتفجر واحداً بعد الآخر، و تبقى الغازات السامة معلقة في سماء المدينة مثل مظلة سوداء.

لكي يشاهد الناس تصاوير نجماتهم المحبوبات بعيون سكرى وشفاه مدلاّة، لم تعد أغلفة المجلات و لا صفحات الجرائد كافية. ديزي [١٤٨]

«ماءاللحم»، حمامة تخفق جناحيها، كأس نحاس في دار سقاية، مجموعات اللطم الطويلة في محرَّم، سكين تقطردماً، قبعة أورپية سوداء و امرأة عارية الكتفين ممزقة الملابس تركض في نهاية زقاق. كانت هذه كل تجهيزات المدينة و كل پروبلمها[١٤٩].

و في المقابل كانت طهرون تعمر. كان الشاه يشغِّل الجميع. كان مستوى البطالة قريباً من الصفر: كان هذا المعدل قبل وصول سلسلة پهلوي إلى السلطة قد بلغ مئة بالمئة. لم يعد أحدٌ الآن عاطلاً.

كان كل الحلاقين «رشتي»[١٥٠]ين، و كل الدلاكين «مازندراني»[١٥١]ين، و يشتغل الـ «سبزاوار»[١٥٢] يون عمالاً غير ماهرين. و كان الطهرونيون جميعاً، اضطراراً، باعة كبدةمشوية أو مسؤولين عن أباريق مسجد الشاه[١٥٣]. (وفي بعض الأحيان يغسلون الموتى أيضاً). كان الـ«كاشيون»[١٥٤] جميعاً باعة سجاد، والـ«كرمانيون»[١٥٥] يبيعون الأفيون، و الـ «آباداني»[١٥٦]يون النفط (كان وضعهم خيراً من الجميع)، والـ «ملاير»[١٥٧]يون عصارات و زبيباً، والـ«أصفهاني»[١٥٨]يون الـ «گز»، والـ «قمي»[١٥٩]يون الأكفان، و الغجر النار. كان السوق في أيدي الترك، و كذلك نظافة المدينة و مدفعية الجيش. كان الـ «همداني»[١٦٠]يون يبيعون الجلود المدبوغة، والـ«شبستري»[١٦١]يون أكياس الحمَّام، و الـ«رفسنجاني»[١٦٢]يون تكك السراويل، والـ «بُجْنوردْي»[١٦٣] يون مطاط الجوارب. كان الـ«أراكي»[١٦٤]يون» يقرأون الفال، و يقرأ الـ «محلاتي»[١٦٥]يون الكف، والـ«قزويني»[١٦٦]يون رأس الكتاب (و في بعض الأحيان كعب الكتاب أيضاً بالطبع). كان الـ «ورامين»[١٦٧] يون يطيِّرون الطيور في الجو، والـ

«قم» ـيون يطيِّرون الفيلة[١٦٨]. كان الكرد يحفرون الروح الكردي[١٦٩]، والغرباء قنوات لأنابيب الماء. أما أبناء العشائر فيبيعون الغيرة، والـ«كرمانشاهـ»[١٧٠]ـيون البطولة.

و ازدادت الصادرات أيضاً، الـ «تايد» و البسكويت إلى الكويت، النعال البلاستيك إلى دبي، شحم الماعز و مصارين الكلاب إلى پاكستان، و النفط إلى أميركا، و الضراط الصغير و تجشؤ ما قبل الفطور لاتحاد الجمهوريات السوفييتية، و أظفار الموتى و عويل النساء ليولندا، الخراء البشري لإسرائيل (زراعتها أعجوبة، إذ تنتج يوسفياً بحجم البطيخ)، أئمة مصلِّين إلى لبنان، جنود لعمان[١٧١]، قتلة للعراق[١٧٢]، روث الأتن لچيكوسلوڤاكيا، و العتيقات لكل العالم.

كان الشاه يبيع النفط، و أشرف الهيروئين. يستورد حسن عرب الراقصات، و الشاه آواكس و صواريخ كروز. و كان البشر يُستوردون أيضاً، السواق من كوريا و پاكستان، الخادمات من الفليپين، الجنائز والأطباء من الهند، الخبراء العسكريون من أميركا، المقاومون المسلحون من فلسطين، الشيوعيون من كوبا، رجال الدين من النجف[١٧٣]، فنانو السينما وفناناتها و المغنون و المغنيات من تركيا.

كان كل طرف من طهرون خاصاً بشيء ما: إن كنت تريد حذاءً فعليك الذهاب إلى زقاق

«باغ سپهسالار» ، أو خيوط حياكة فإلى مفرق «حسن آباد»، فتوة إلى «چاله ميدان»، عاهرة بكل اللهجات الموجودة في الممالك المحروسة فإلى ناحية «هفت پنج» .

كانت طهرون مركز أعمال غريبة ، مركز حركات عجيبة. فمثلاً،

كانوا يعبئون فيها الباذنجان أيضاً في العلب و يبيعونه، حتى مرق الـ«قورمه سبزي»[١٧٤] و الحليب، و باسم التغذية المجانية يعطون أطفال المدارس جبناً لو أشعلت فيه عود ثقاب لاشتعل. كان شائعاً على الألسن أن الشاه يخلطه بالنفط... كانت المملكة قد صارت صرخة واحدة. هذا هو وضع أم قرى الإسلام.

صارت السنة سنتين، ثم ثلاث سنوات. كانت طلا تريد الآن أن تعود، و إذا بها تسمع أشياء. قالت لكرامت: كأن ثمة أموراً. كانت ثمة أمور. قالت المرأة بسذاجة: أتستطيع أن تأتي؟

كان في بعض المناطق صخب، تظاهرات ضد الحكومة. يسمع كرامت نتفاً من أشياء. في كل مرة كان يضرب ركبته و يقول: عفارم عليهم!

كان الشاه و كارتر يقفان دامعي العيون إلى جانب أحدهما الآخر، ويتكلمان واحداً بعد الآخر خلف لاقط الصوت. يبحث الشرطة الأميركان، بالهراوات و دروع الطلق، عن الناس و يخرج من فوهات المسدسات بدلاً عن الرصاص شيء يتبدل بعد ذلك إلى كتلة من غيم أبيض. عرض التلفزيون ذلك كله، شفت تلك الدموع قلب كرامت. كان قد مد خطوة إلى أمام وقال، و هو يحدق إلى التلفزيون: العمى! يبكي كالنساء!

يصيَر سويق «آب سردار»، بعد صلاة المغرب، كيوم القيامة. كان رجل دين مهم يتحدث عن ظلم يزيد و يشير إلى الشاه. ينسدُّ الطريق كله من مفرق «ژاله» الثلاثي و «سر چشمه» و «بهارستان» و من الطرف البعيد إلى «ظهير الدولة» و«صفي علي شاه»[١٧٥]. كان كرامت

يقول: هؤلاء، رحت فداءً لهم، عندما يتكلمون يفهم الإنسان، لا يرطنون كباراً كباراً وبالنحوي.

كان مكبر الصوت يصفر أحياناً ويخرخر. كان كرامت يستشيط غضباً وينعر: اقطع التهريج، تهريج هذا البائس!

كان يمر بخياله شيء من ظل الأولياء البارد، السجادة الآمنة للمساجد الكبيرة و نصف المظلمة، الرائحة الطيبة لأيام طبخ النذور أو من قوس قزح ريش الطاووس الذي هو علامة جماعات أهل الميدان، مثل غيم رقيق ملون. كان يغمض عينيه. يلوي العنق السمينة على لوح الكتف، يرفعه إحساس خفة إلى قريب الغيوم و يضغط رضا خالص لسعادة عرضية قلبَه. أيمكن أن يهب الآن وهنا بالذات كل ما يملك في سبيل الله للأطفال اليتامى؟ كان يقف فيجمع ذلك الحشد المعروف، وذات ليلة في أوج الحاجة أخرج المنديل من جيبه و راح يبكي- في زاوية الشارع، و كتفه إلى الجدار - معولاً بين صوت الصلوات المتتالي وهتاف الموت للشاه.

كان الحشد يتحرك، مثل موج دائم، من كل جانب . بعد لحظة، لم يعد المكان الذي يقف فيه الآن موجوداً. التجوال مع الجمع، التسليم لهم و حس هدوء و أمن. كان يفكر أنه أحد هؤلاء، واحد من هؤلاء الناس العاديين بالذات، الناس المدقعين الذين نهض من بينهم و الذين لم يعد يراهم منذ سنوات، لكثرة ما كان على عجل، لكثرة ما كان لا يبالي، ولكثرة ما كانت مشامُّه امتلأت من روائح تحت آباط النساء الندية.

تأكد أن واحداً من هؤلاء الناس الذين ملأوا كل الأزقة و الشوارع، كل الممرات و السلالم، كل الأرصفة، البازار و«گلوبندك» و «سر

چشمه»[176] ، «ميدان خراسان» و«شوش» و «ژاله» و «بهارستان»[177] ... كل مكان، و هذا الإحساس طيب.

- أيها الأخ، قف على طرف كي تمر الأخوات.

- أيها الأخ، أتعبِّر طفلي من فوق الجدول؟

- جاء أفراد الحرس[178] فيجب الحفاظ على الأخوات.

كانت الغيرة وحس الأخوَّة يملآن، مثل مركَّب معالِج، عروق بدنه بمسؤولية عذبة. كان يرفع اليدين القويتين إلى أعلى. إنه قادر الآن أن ينقل شيئاً بحجم الثقدير في فضاء مدينة طهرون.

كان ينام الليالي بقلب هادئ، الأمر الذي كانت له، بعد سنوات، جدة. حلم حتى بطلا. هذه لم تعد امرأة، كانت قطعة كاملة من جواهر. كانت تقف كتفاً إلى كتف معه، في زاوية الحديقة، بچادر صلاة أبيض. كانت الحديقة غارقة في زهر المحمدي وكان الوقت صبحاً. كانت امرأة غائمة الوجه، بشعر أبيض وچارقد أخضر، تمرره من تحت القرآن و من بين حلقة الـ«قلْ ياسين»[179] و تُفرغ وراءهما ماء كاسة خزف مشعوبة. صب البعض الدموع ، وتلا بعض آخر أدعية، و بقي آخرون ينتظرون؛ كانوا يذهبون للزيارة.

و في ذلك اليوم اشترى عشرة خراف وذبحها مجموعة مجموعة أمام الحشد. و في المساء جاء سي قدرت لرؤيته. قال: الحق أنك أبدعت!

كان كرامت قد أحنى رأسه مثل طفل على كتفه، متظاهراً بالبراءة، يجلس متربعاً على الأرض و يتفرج على زهور السجادة، كأن لم تكن في راحة يده حتى شعرة واحدة.

يوم الجمعة التالي نام حتى الظهر. عند الظهر ركب السيارة. عندما

هبط من دزاشيب، وجد المدينة مضطربة. كان دخان يرتفع إلى السماء من جهة فرح آباد و رأى عند مفرق طرق حشداً متناثراً. وقميصاً دامياً على الأيدي. كان السابع عشر من «شهْريوَر»[١٨٠] ، يوم الجمعة الدامية[١٨١].

كان يوشك أن يجن. قرع الجدار مرة أو مرتين بجمع يده و عندئذ شرع يركض. كان قريباً من ميدان «فوزيه»[١٨٢]. وسيارات الإسعاف تروح و تجيئ مصفِّرة.

ذهب إلى مستشفى قريب من هناك. كانت رائحة المرأة التي انحنت فوقه وغرزت إبرة الحقنة في وريد يده تكاد تجننه. فجأة صحا لنفسه. قال: خذي مني عشرة أكياس دم.

وسَّعت المرأة عينيها: عشرة أكياس؟

سمَّر كرامت عينه بالأرض وقال بهدوء: لا كلام يا أختاه، سمعتِ صحيحاً.

في الأشهر التالية كان الشبان يتجمعون حوله في المحلة. لا يسقط اسم سي كرامت عن ألسنتهم. أمام الجامعة كان يقول للصحاب: إنني لا أفهم شيئاً من هذا الكلام. إذا ظهر أفراد الحرس فقط خبروني.

كان واحد قد صعد على مقعد مضموم اليد صارخاً: أسقط الانقلاب الأمريكاني حكومة مصدق القانونية كي يعود الشاه الخائن، كلب أميركا المربوط...

كان كلب سائب يركض في الشارع و على عينيه نظارة و على كتفه بطانية، وتهتز على صدره رقعة مكتوب عليها: مصدق! رأى شعبون بي مخ، و ملكه اعتضادي[١٨٣] ولابسي أربطة العنق الذين يشاهدون متفرقين

هنا و هناك بشعور مدهونة و وجوه محلوقة نظيفاً و حشداً يركبون شاحنات مكشوفة يحملون تصوير الشاه الشاب يصعدون في شارع «كاخ».

بعث بيوك صابر [١٨٤] برسالة: ليستعد الصحاب لخطةفورية. كان الشاه قد هرب من البلاد وتلخبطت أوضاع طهرون مرة أخرى كثيراً. الأحكام العرفية معلنة ولكن شعبان جمع الصحاب، من دون الاهتمام بتلك الأمور، و أخذهم إلى بيت آية الله بهبهاني. كان رمضان يخي يقول من قعر حلقومه: يحيا الشاه، و يردد الصحاب من بعده.

في اليوم التالي كان الجميع في بيت رمضان يخي، بانتظار تلفون أكبر ديلماج. نفد صبرهم. كانوا متضايقين. لم يكونوا يدرون ما ينبغي أن يفعلوا. تلخبطت كل الخطط. بعد الظهر مر كرامت و عزيز قرقي بالشوارع. كان في بهارستان قيامة، و الأوضاع قمراً في عقرب حقاً. هناك كان أنصار مصدق ينثرون ما تيسر من الشتائم و الإقذاع على الشاه. يُنزلون التماثيل. كان الحديث يدور حول الجمهورية و الاستفتاء.

في اليوم التالي انقلب الحظ.

– تحرَّكْ مع مجموعة من الضاربين بالأمواس و البنات من «جفت پنج» إلى فوق. لقد حضَّرت ملكه اعتضادي البنات.

انصبُّوا جميعاً وراء الشاحنات نحو الإذاعة. حسم كرامت الأمر فذهب مع مجموعته نحو بيت مصدق.

قفز شعبون، كالأجل المعلق، إلى وسط الشارع و المسدس في يده. توقفت سيارة الجيپ عند قدمه بالضبط. أمسك شعبون بياقة السائق وأنزله. في طرفة عين جلس وراء المقود، داس بقدمه على دواسة الوقود وقرع باب بيت مصدق. قال الحشد يحيا الشاه مرة أخرى و هجم.

قالت غنچه:

- السيدة ثريا هذه مهندسة، إنها تهندس على نحوٍ تعال وانظر. أفمن يدرس المحاسبة يصير مهندساً؟ ثم أن صاحبنا الزوج لم يكمل ، أصلاً، دراسته... أما أنت فإذا بذلت قليلاً من الهمة و أخذت شهادتك الإعدادية، سيتدبر الباقي. فما الذي ينقصك عن زوج السيدة ثريا ؟

في أوائل صخب الثورة كان يحس دائماً بالغربة أمام الجامعة. ولكن شيئاً فشيئاً صار الأمر بحيث أنه عندما يدير رأسه، كان كل ما يراه كسبة و ناساً صغاراً أو نساءً؛ مع بقجات و زنابيل و بيجامات شيت، و زوايا الچوادر تحت الأسنان، و الأطفال محشورون في الأحضان، يوجهن أفواههن نحو السماء و يهتفن بالموت للشاه و تثير نعالهن البلاستيك التراب وراء ظهورهن في الهواء.

كان كرامت يحتضن مرفقيه و ينظر إلى الأخوات. أين كانت تينك البنات المغناجات الجامعيات؟ يرفع كرامت سواد العينين إلى أعلى، تتحرك شفته في ترنم ثم يعيد النظر إلى الأخوات. يرى فجأة ورقة ألصقت بالجدار و يتزاحم الناس أمام الجدار. كان الوزراء و أمراء الجيش والأمراء ينقلون الأموال للخارج. يصفر رأس كرامت من كل هذه الأصفار

التي أمام الأرقام، ثم الأخبار المتعلقة برفيقات الشاه و خليلاته. كانت الممثلات الأجنبيات ذوات الشعر الذهبي المعقوص و التنورات بالغة القصر يتحدثن عن الهدايا التي أخذنها من الشاه لقاء ليلة نوم معه. الراقصات و المغنيات و الفنانات في أحضان الوزراء، و أخيراً «فرح»[١٨٥] جنب المسبح بمايو من قطعتين. هنا كان كرامت يغمض عينيه، يشتم مقذعاً بهمس و يقول: عديمو الشرف، أكلوا الحياء و ويقيؤوا الاعتبار!

وبعدئذ رن ذلك الصوت ذاته في أذنه: غطي وجهك يا أختاه.

أغلق المعرض ذا الخمسة أبواب أو الستة وصار منذ الصباح حتى المساء يتسكع بباب السجن حاملاً أغصان الزنبق و علب الحلويات منتظراً السجناء السياسيين.

لم تعد أشياء الأمس نافعة. يؤيد الناس أشياء جديدة. أحرقوا مؤخر ناحية «جفت پنج». أحرقوا مبغى طهران، تشردت البنات، والبقجات تحت آباطهن، في الأزقة، و كمعلمات البيوت وخياطات البيوت نقلن الشغل إلى منازل العملاء.

ألقى الناس بالجميع إلى مزبلة التاريخ: «مهوش» مع أغراضها المعوجة، «فردين» و«ماء لحم» به، «إيرَج»- مغني المدينة المعروف- مع أغانيه الزقاقية، «بهروز وثوقي» بـ «گيوت»ه مرفوعة المؤخرة على طريقة «قيصر»، «آغاسي»[١٨٦] بساقه العرجاء و ارتجاف صدره، «گوگوش»[١٨٧] بقبعة الخان [١٨٨] المائلة خاصتها، «أشرف» بالفاسقين بها أفراداً وأزواجاً، «فرح» مع فنها الشيرازي، «بختيار»[١٨٩] ومنقله ووافوره، و الساواك بكل عقدائه، و «أمجدية»[١٩٠] بلاعبي كرة قدمه، فندق «مرمر» بمثقفيه، «هژبّر» [١٩١] بمعامله، كازينو «رامسر»[١٩٢] مع

مائدة قمارها، جامعة طهران مع صف محلات بيع الكتب مقابلها، كاباريه «ليدو» مع زبائنه... الجميع. لم يبق بعد إلا عليٌّ وحوضه[١٩٣]!

فُتحت السجون!

أترى هذا الممشى؟ إنه يمتد من هنا مباشرة إلى حدود السي آي أيه.

ارتفع الدخان من رأس[١٩٤] كرامت.كان الممشى طويلاً ومظلماً. يبدأ من السجن نفسه. قال: عجيب! لم يكن يدري إنه ، بعد سنتين أو ثلاث، سيكون له شأن ومقام في هذا السجن ذاته.

رفع أيضاً مؤخر حذاءيه. حتى إنه ذهب إلى زيارة[١٩٥] فجدد نشاطه. لم يكن يرفع ردني القميص قط أمام أحد كي لا يرى أحدٌ وشمَ جسده.

في الليالي كان يذهب من هذا الزقاق إلى ذاك الزقاق. يكسِّر النُقل تحت الأسنان الذهبية، يضرب بجمع اليد على أكتاف الصحاب، يقول: ساعدكم الله، و يلاطفهم. من كل جانب كان نداء «سي كرامت» يرتفع في الفضاء.

في النهارات يتورط. كانت فتيات صغيرات لا تزال أفواههن تفغ رائحة الحليب يقفن على مفارق الطرق بشعورهن المضفورة و يبعن جرائد الشيوعيين و«مجاهدي الشعب»[١٩٦].

مرة أخرى لم يكن كرامت يجد فرصة يحك فيها رأسه. كان يلطمهن على رؤوسهن كي يذهبن إلى أذرع أمهاتهن.

صار لدى كرامت من جديد وقت يحك فيه رأسه.

- سي كرامت!... كرامت! أنا.

اهتز. شم رائحة عطرها. كان ما أمامه يصير أسود و أبيض. تَلوَّن مقابله مرة أخرى. يدا پري المرتجفتان، جسد بتول الخالي من العظام،

شيطنة أقدس، و خصلات الشعر المعقوصة تلك التي لم يكن معلوماً بما تغسلها. قال لنفسه: لا، أهو ممكن؟

وقف لكنه لم يستدر. سمع وقع خطاها. كانت تقترب. قال مضطراً: معي، يا أختاه؟

كانت المرأة تقف قبالته بنظارة سوداء، منديل شعر أسود ومعطف طويل. قالت:

- أختاه ماذا؟ لا تتظاهر. أنا، طلا!

ضم كرامت شفتيه، وقد تغضن جبينه، وقال: - عدت؟ لماذا؟

فقالت طلا: - أكان ينبغي أن أستأذنك قبل ذلك؟

كانت تمد خطوة نحوه عندما قال: - لا تقتربي!

وهنت طلا، قالت: - يعني ماذا؟ لماذا تتكلم على هذا النحو؟

قال كرامت: - ليس جيداً.

تراجعت طلا أخيراً خطوة. أنزلت نظارتها. قالت: - لا أفهم.

وضع كرامت المسبحة في جيبه. قال: - بحياة طلا؛ يروننا معاً.

فقالت طلا: طيب، أفأرقتُ دماً؟

أشار كرامت إلى الصور و الشعارات على الجدار وقال: - تبدل كل شيء.

قالت طلا: هذا أعرفه، إنني أراه.

فقال كرامت: - أنا أيضاً تبدلت.

هزت طلا رأسها متأسفة:

- لم أكن أدري هذا بالذات. لكنني لا أظن التبدل بهذه السهولة... قل لي أصلاً ما الذي تفعله؟ أهو معلوم؟

قال كرامت: - أنا؟

هزت طلا رأسها: - نعم أنت!

أدار كرامت يده فيما حوله:- العمل ذاته الذي يفعله الجميع، فقط.

ثم هز رأسه. عوجت الابتسامة المواربة المعروفة فمه لحظة: لكن حسناً...كما في كل وقت أنا أنجح في الأمر خيراً من الآخرين.

تقدمت طلا خطوة أخرى. خفضت صوتها: هيا، تعال مرة أخرى وافعل شيئاً آخر.

نظر إليها كرامت. قال غير مصدق: - شيئاً آخر؟

قالت طلا مؤكدة:

- نعم، غير ذلك العمل الذي يفعله الجميع.

نظر كرامت فيما حوله. قال بشيطنة: - لم يسبق أن فكرت بهذا حتى الآن.

ثم فجأة ضاق خلقه: - لماذا يتعين أصلاً أن أقوم بشيء آخر؟

قالت طلا: -عندئذ ربما يصير وضعنا جميعاً أفضل.

هز كرامت رأسه: - يصير أفضل، أنا متأكد.

قالت طلا:- أنى لك أن تتأكد؟... ثم ما وضعي أنا؟...و وضع أولئك الذين يتركون ويذهبون إلى ذاك الجانب؟

قال كرامت: - حان دورنا الآن.

أمالت طلا رأسها: أنت أيضاً لم تكن واقفاً على جنب كثيراً.

قال كرامت: لكنني عانيت.

فقالت طلا: - من الذي ينبغي أن يُنتقَم منه الآن؟

أنزل كرامت يده إلى قريب الفخذ. أغمض عينيه و قال بحقد: - أولئك الأضعف من الباقين.

قالت طلا: - من أجل هذا أقول تعال الآن و افعل شيئاً آخر. شيئاً يختلف عن المرات السابقة.

قال كرامت: - قولي قولك بوضوح.

قالت طلا: - أوضح من هذا؟ إن لم تكن تريد أن تفهم فلن تفهم.

قال كرامت: أريد من الآن فلاحقاً أن أدخل اللعبة أنا أيضاً. أريد أن يُحسب حسابي.

ضمت طلا وجهها، تغضن جبينها، و قالت:

- أنت؟ لا يسمح لك أحد بأن تشارك في اللعب.

قال كرامت: - لكنني ألعب لعبتي.

وقالت طلا: لن تربح. فات وقت ربحك.

قال كرامت: و لكن ينبغي أن يسددوا لي الحساب. لقد كنت أخسر دائماً. يكفي بعد.

قالت طلا: لأن هذه الألعاب معقدة، فأنا وأنت لا نفهمها.

فقال كرامت: - لكن أحد أسس هذه اللعبة الآن أنا، أتفهمين: أنا؟!

قالت طلا: تتصور، كل ذلك أوهام. ثم...إن ذلك الذي يخرِّب، يخسر في الآخر.

قال كرامت: - ولكن ينبغي أن نخرب أولاً كي يمكن بعد ذلك...

كانت طلا ترفع يدها إلى أعلى عندما قالت: - لا فائدة، انظر؛ لقد جئت كي...

فسحب كرامت ذراعه.

قالت طلا: أفأنا مصابة بالجذام؟ لقد جئت كي نعود معاً.

أخرج كرامت المسبحة من جيبه. قال: - أنا و إياك لم يعد بيننا عمل. اشطبي خطِّي!

و أولى المرأة ظهره. قالت طلا: - يا عديم الأصول!...هذا فقط؟

دفعت نظارتها، على أنفها، إلى أعلى مرة أخرى. قال كرامت:

-أستعيد لك جنينة دزاشيب.

نزعت طلا نظارتها. قالت و هي صافنة على ظهر الرجل العريض:

- لكنني أريدك أنت. أنت فقط.

أغمض كرامت عينيه. دردم شيئاً ما هامساً.

قالت طلا و العبرة تخنقها: - عندما كنت ذاهبة، تواعدنا وتعاهدنا، أتذكر؟

و مرة أخرى وضعت النظارة على عينها. فقال كرامت أهدأ منه في أي وقت آخر:

- لقد تغيرتُ. أتفهمين يا طلا؟ كرامت ذاك الذي كنت تعرفينه مات.

فقالت طلا محذرة: - كرامت ذاك الذي عرفت لن يموت، أبداً.

كانت ضعيفة معصوبة الرأس تقف قباله تذرف الدموع. أين غيرتك إذن يا رجل؟ يا «ملك مطيعي»؟

قال: - كنت أريدك. الآن أيضاً أريدك. لكن انظري.

قالت طلا: - ليس ضرورياً أن تغير باطنك، يكفي ظاهرك، مثلي تماماً، انظر إليّ!

حاول كرامت أن يقنعها: - الزمان نفسه هو الذي تغير.

رفعت طلا صوتها: - لا تنخدع بالصباغ و الألوان، ما زال الزمن زمننا. سرعان ما سيتضح هذا لك أيضاً!... لماذا أخذت هذه المسألة جدياً؟ ثم إنني لا شأن لي بالزمن، أتبدلت حقاً؟... أنا لا أصدق. (مدت

يدها فأمسكت ياقة كرامت وصاحت): قل، قل الحق، ما رقم هذه المرة التي تتغير فيها؟

كانت ترتجف. كانت تُخرج قطرات الدمع من خلف النظارة نحو الشفتين. في هذا الوضع أخرجت حقيبة يدها من تحت إبطها، فتحتها وأخرجت دفتر صكوكها. لوحت به في الهواء وقالت: - أشتريك. أنا مشتريتك. قل، قل فقط كم!

ضم كرامت شفتيه و أرجع جذعه إلى وراء: كانت عروق عنقه قد ورمت. حرر ياقته من قبضة المرأة و قال: - يكفي!

هزت طلا أصبعها في الهواء. قالت :

- هذه زائلة، لا تنصب خيمة على الماء يا سيد.

تحفز كرامت في مواجهة وجه المرأة: - لو كان شخص آخر غيرك قال هذا الكلام، لكنت مزقت...

جففت طلا بالمنديل ماء أنفها. ابتسمت ابتسامة سخرية و رفعت كتفيها إلى أعلى:

- تأكدت الآن من أنك لم تتغير. لك تظاهرك السابق عينه. سأبقى أنتظرك.

لم يكن ثمة مجال للتهرب. لم يكن ممكناً التلاعب في مواجهة صدق هذه المرأة. إن لم أقل لها هَمِّي على الفور فلمن أقول؟ فجأة، أنارت شرارة عابرة قلبه. صعد ألم ينتشر من قلبه إلى أعلى، سد طريق حنجرته. قال بصوت مشروخ، و بلا ملجأ:

- لا، لم أتغير. طيلة هذه الخمسين سنة أعطيت نفسي للنيك فقط، لأولئك، لهؤلاء، وأنا أعطيها لهم الآن أيضاً. ينبغي أن أعطيهم جميعاً.

أشاحت طلا بوجهها ، تلبثت لحظة، حتى إنها أرادت أن تعود ثانية. في منتصف الطريق توقف رأسها. حتى إنَّ كلاماً لم يُقَل هز شفتيها. هزت رأسها قاصدة طرد تصور ما و عندئذ ابتعدت بخطى طويلة...ركض وراءها طفل. كانت النسوة واقفات. و كان أنصاف رجال ينظرون إليهن، تحت وقار ملابسهم و أبهتها. كان خروج كرامت من صالون القمار خاتمة الحفل.

ساءت حاله عصراً ذرة فذرة. عندما حل الليل كان جسمه محطماً كله. تعطل فكره عن العمل، كان يحدق إلى الجدار و قبضته تحت فكه. لقد قضت المرأة عليه.

تلفن لـ «عزيز خوش پنجه» فأرسل له هذا زجاجة عرق. بعد شهورٍ شرب العرق ثانية، بلا مازة، من دون شيء. في الممشى بالذات فتح غطاء الزجاجة بأسنانه. إلى أن وصل الغرفة كان نصف الزجاجة قد فرغ. عندما جلس على الكرسي كان قعرها قد ظهر. بعد أشهر أخرج تصوير طلا من الجرار و وضعه نصب وجهه. بعد لحظات وضع جبينه - ثملاً خرباً ونعساناً - على ساعد يده.

كانت طلا، و چادر الصلاة المورد ملقى على كتفيها، و مقْنعة[١٩٧] بيضاء و وردية تلمع كالشمس.كان هو يعتمر قبعة سوداء ويلقي جاكتته على كتفه، و تحت إبطه كيس عنب كبير. كانا متجهين، بخفق أحذيتهما التي ديست مؤخراتها، إلى شاه عبدالعظيم[١٩٨]. كانت معزاتان أو ثلاث صغيرات تسرح بين أرجلهما. و ضاعا، جزءاً فجزءاً، عن الأنظار وراء أمواج دخان السذاب.

استيقظ سحَراً. كانت طلا تنظر إليه بعينين ثملتين، بشعر ؟ حلقة

حلقة، و خال كبير كما كان لفرخ لقا[١٩٩] و شفتين كبديتي اللون نصف منفرجتين. وضع التصوير على صدره وتمدد على ظهره فوق السجادة.

ذهب شهراً أو إثنين إلى تركيا، سفرُ هو شغل و هو تسلية. و لكي ينسى طلا تماماً، مرة أخرى لم يبال بالدنيا بما فيها و ما ليس فيها. وتأكد مرة أخرى من أن السماء و الأرض و كل ما فيهما، تقطرت جميعاً منه، و في هذه الأوقات ذاتها كان وجوده الرجولي يشتعل فجأة.

في الليالي كان يجول بين قطعان النساء و يمتع بهن ناظريه، كان لا يرى النساء إلا بشكل عضوهن الجنسي، الأمر ذاته الذي يظهر فيه الرجال أنفسهم. ثم إنه هناك أيضاً كان النوم مواصلة لليقظة. في العالم الوهمي و المغشوش للأحلام فقط كانت النسوة و حدهن هن الواقعيات. كان يدفعهن واحدة واحدة، كان فرْج كبير بانتظاره في نهاية الطريق.

انحنى كرامت. قال:

- قولي لي يا صغيرة، قلت ما اسمك؟

كانت تانك العينان العسليتان الخجلتان تنظران الآن إلى أرضية الحانوت. تناول مصطفى، صبي حانوت بيع الفواكه، القِدر و قال: - جاريتك غنچه[٢٠٠].

اهتز البدن الضخم بقهقهة. اتجه نحو مصطفى: - هذه خوخة يا مصطفى. لا غنچه؟

قال مصطفى: - الآن سواء أكانت برعمة أم خوخة، هي صغيرتك.

كان لنظرة كرامت برقٌ مرة أخرى. و مصطفى رجل هو الآخر؛ يعرف هذا البرق. ولكي يتجنب نظرته، تناول حبة كمثرى و مسحها بالمنديل.

كالحمامة، طارت غنچه في الحانوت وشرعت بالركض.

أدار كرامت رأسه. لم يكن ذلك حانوتاً، كان بستان زهور. لم يكن أي بائع فواكه في طهرون يشبه مصطفى في الذوق. ابن طهرون، معلم سابق، يدير الآن حانوت فواكه كرامت. و قد رأى كرامت ابنته مرتين أو ثلاثاً بباب الحانوت.

كانت البنت حلوة المظهر و المعشر. في السادسة عشرة أو السابعة

عشرة. لكنها ضخمة و ناضجة. بغطاء الرأس وتلك المعاطف الطويلة الفضفاضة كان مظهرهن يتشوه بالطبع.و في تلك المرة، إذ مدت يدها كي تعطي أباها قدر الطعام الملفوفة بالمنديل، ذلك المعصم الأبيض، كما لو أنه بلور صقيل، كما...أوشك قلب كرامت أن يقف. التهب جسده فجأة.

كان تصيَّغ امرأتين أو ثلاثاً. و صرف واحدة أو إثنتين منهن كي تذهبا. كان سي قدرت، رئيس لجنة المحلة[٢٠١]، يقول: الآن ينبغي أن ترتب أمورك و تستقر.

كان كرامت يدير يده في الهواء ويقول: - ما لم يستقر هؤلاء، كيف أستطيع؟

- هذا صحيح بالطبع. ولكن هكذا أيضاً ليس حسناً. أفسألت نفسك لو كان عندك شابان أو ثلاثة مثل غصن بان، وكانوا الآن مختلطين بهؤلاء الشبان...

- تقول الحق و الله.

كان سي قدرت يلحُّ. و أخيراً سأله: قل لي، ألم تعيِّن واحدة؟

كان كرامت ينتظر هذا. ضحك مصوِّتاً. علك بأسنانه قطعة القند، وقال:

- صبية سي مصطفى! و أنت تعرف الباقي.

جاء سي قدرت يسأل عنه صباح الغد، وجلب معه علبة نقل أيضاً. قال:

- أجازت الاستخارة، وتحدثت إلى مصطفى أيضاً. مبارك، حَلِّ فمك.

برقت عين كرامت. سال لعاب فمه من زوايا الشفتين على فكه. كان صوت الضحكة المقهقهة يلين عندما تركها قبل أن تكتمل. قال: - أنا الذي يجب أن أقدم الحلوى يا حاج!

- أهه! أحسنت! أألمفروض أن تكون حلواك بهذا اليسر و هذه البساطة؟

التهب كرامت مرة أخرى. لم يسمع ما قال سي قدرت. قال: أقبل مصطفى؟

ألقى سي قدرت المسبحة في تقعير كفه، و وضع أصبعاً على ياقة جاكتة كرامت:

- قلت لك! كان يتمنى ذلك من الله. ليس لهؤلاء الفتوات الشبان؟. أنت بمقدورك أن تجمع عشيرة تحت السقف الذي يُظلُّك.

عقدوا العقد لائقاً وبسيطاً. كان كرامت يقول:

- لا أريد أن أُحدث ضجة. لا يزال أسفلت الأزقة يفغ رائحة دماء شباننا.

يقول حقاً، فكم من أيام الثورة الدامية كان قد مر؟

قالت أم غنچه عند العقد لكرامت: - يا كرامت خان، بروحك وروح طفلتي. بنيتي رقيقة جداً، ينبغي أن تنظر إليها فقط.

مرة أخرى ضحك كرامت بذلك التصويت المتأني. وضع يده على صدره. قال:

- غنچه مرهم للصدر. أضعها هنا!

و الدليل أنها صارت قعيدة حجرة العرس، و أنها وَلدت ثلاثة بطون من الحليب للحليب. بعد شهرين أو ثلاثة جاءت نوبة العرس؛ في آخر

الليل سلموا العروس بيد العريس.أخذ كرامت عروسه و راح بها إلى بيت «زعفرانية»[٢٠٢]. كانت إثنتان أو ثلاثاً من العجائز يردن أن يذهبن وراءهما، إلا أن كرامت لم يوافق[٢٠٣].

ركبت غنچه الـ«بنز». لم يكونوا قد زينوا البنز بالزهور، و لم يكن ثمة بوق أيضاً. ما كان أحد يطاوعه قلبه، فقد كانت الحرب مع صدام بدأت للتو، و كانوا يجلبون الشبان من الجبهات جماعات جماعات. بدأ كرامت بالاشتراط و تقرير الشروط.

لم تكن مجازة بأن تخرج من البيت من دون إجازة، يجب ألا تسأل كرامت: متى تذهب؟ متى تأتي؟ يريد منها أن تكون نجيبة و تربي له عدداً من الأولاد؛ أن تخشى الله و لا تقول شيئاً فوق كلام زوجها؛ ثم أن تطبخ له ماء اللحم، وأن تكون مونته جيدةً، و بلب الفخذ (يتعهد هو بأن يهيئ اللحم)؛ أن يكون الـ «فسنجان»[٢٠٤] حامضاً قليلاً وأن تنطبخ صلصته جيداً لا أن يكون الماء فيها مفصولاً عن المحتوى؛ و إن لم يكن ثمة من شيء إلى جانب الطعام، فلا أقل من صحن فجل أحمر صغير وكاسة كرنب مملح يكونان هناك حتماً. والآن فقط سأل:

- قولي لي: أعلّمتك أمك الطبخ؟

نظر إلى تول رأس غنچه الأبيض و إلى الشفتين المصبوغتين بالأحمر الذي بهت قليلاً من وراء التول، و تلك الأهداب...لا، لم تكن أهدابها. كانت كالفرشاة سوداء وطويلة فتذكّر تينك النسوة...لا، هذه الآن ناموسه. ما كان يرتاح. ولقد قال لأم غنچه أيضاً.

- يا سي كرامت، من الآن فبعد هي ملكك، سيِّرها كما تريد!

عرس! عرس! يا لجهاز الطفل و الجهيزيات[٢٠٥] التي سبق أن أخذها إلى بيوت الناس طبَقاً طبقاً.

ينفصل الباعة الجوالون عن الجدار وينهضون من مواجهة الشمس. يضعون لفافات المآزر الحمراء على رؤوسهم، يقولون: يا علي[٢٠٦]، ويرفعون الأطباق عن الأرض.

تنثر النسوة النقل من النوافذ.

تهتز مدلّيات بلور الشمعدانات، و يلمع ساتان اللحاف و القدور النحاس تحت الشمس. السماور و الكأس الزنكية، المرآة و البلور والصيني، كاسة عيدان سكر النبات ومصباح العقد، خبز الحصى وإكليل المباركة. يركض العرسان بمناقل السذاب في المقدمة. صلوات من أجل عمى عيون الحسود و البخيل و غير الطاهر و غير النجيب. تضيع الأطباق وراء دخان العود و العنبر والـ «وَشَا»[٢٠٧]. كانت منابت الجدران ملأى بالناس.

بتلك القوة التي كانت في ساقيه وفي عنقه كان أثقل الأطباق دائماً سهمه، و كانت الأبواب خفيضة دائماً. يثني ركبتيه. يتفرج الجيران من شقوق الأبواب و مأمن السقوف.

عينان سوداوان لامرأة، أو يد تلقي فردة ضفيرة عن صدرها إلى وراء. كان كرامت يخطو، لاهياً، خطوة أو خطوتين، ثم ينادون عليه فيعود إلى الطريق مرة أخرى.

على استقامة جدار الباحة الكبرى يضعون الأطباق عند أدنى الجدار و يذهبون إلى الظل. تركض امرأة إلى أمام بكوز الشربات. وفي الجانب الآخر يعدُّون قائمة.

يغير أولاً مكان إجانة اللبن. يصفّ عشرة أطباق أو إثني عشر طبقاً من ذوات البضعة الأمنان[٢٠٨] فوق بعضها، الأمر الذي كان جديراً

بالتفرج. ثم يضع واحداً أو إثنان من المساعدين، ممن صاروا في متناوله، الأطباق في مؤخر المقهى، ويجلس هو عند منبت الجدار على مقعد ، مقابل طبق مدلّى من العضادة.

و كان أن صار رئيس حاملي أطباق ، و يحمل المرآة والقرآن عندما يذهب إلى سويق

«حاجب الدولة». كان الأعيان يشترون الصيني و البلور، و يعطونه إنعاماً دسماً. ومهما كان العرسان الشبان الخجولون يعطون من إنعام، فإن حامل المرآة الكثير الادعاء ما كان ليرضى...

كانت غنچه تنظر. كما لو أنها لم تر باحة بتلك السعة طول عمرها. كل تلك المصابيح الملونة في الجنينة، الحوض المملوء بالماء، الأرجوحة بين النجيل و الفوارات التي تدور في الوسط و ترش الماء.

فتح كرامت باب السيارة. احتضن غنچه و أنزلها على السرير. قال:

- اغسلي وجهك بكف ماء. ما هذا؟ مسحوا بوجهك كل شيء!

...سمعت أنك تريد أن تتزوج. من أجل هذا أكتب لك هذه الرسالة. بنت طفلة. تحيرت ماذا تريد أن تصنع بها؟! فهي لا تفهم معنى الرجل. عسى ألا تفجِّر مرارتها رعباً، بنت الناس! بتلك العربدات التي تنطلق منك على غير انتظار... إنني أعرف حالات ثملك وكم ينبغي أن يمر حتى تعرف أنت ذلك. لا تسأل كيف عرفتُ. عرفت على كل حال . الغراب جاءني بالخبر. لست حزينة. ولست عصبية أيضاً. طيلة هذه السنوات كانت لك حياتك، و لي أنا أيضاً حياتي. ولكن ماذا عن قولنا وعهدنا؟ تندم، أدري. تبني، وتهدم. كان هذا ديدنك دائماً. إنني أعرف الرجال، و الأشخاص الذين من جنسك أكثر من غيرهم...

كان كرامت يمد يده إلى حزامه كي يخلع بنطاله عندما رن جرس التلفون. شتم أموات الجميع و أحياءهم. خرج، و في الصالون رفع السماعة. ثم تلفون بعد تلفون. لمدة ساعة كاملة عيَّن مواعيد الغد، هيَّأ الأشغال، سأل عن الأسعار.

في منتصف الليل عاد إلى الغرفة. كانت غنچه صاحية تنظر، بعين مفتوحة، إلى الطاق. عندما أزاح اللحاف، لملمت غنچه العروس ابنة السبع عشرة سنة نفسها، مثل أصيص ينقلونه في أربعينية الشتاء من غرفة الزهور إلى الباحة.

و سحب كرامت، بتلك الضحكة المصوَّتة الليِّنة، و هو لابس البيجاما، جسده الضخم إلى تحت اللحاف، وقال: - مخلص لأبناء طهرون!

ثم قال: - شكراً لله!

فلورنسا (إيطاليا)
كانون الأول - ٢٠٠٠

الهوامش

١) ميناء عباس ، وهو ميناء - مدينة إلى الجنوب الغربي من ميناء بوشهر .

٢) المقصود سيارة ميرسيدس بنز .

٣) مؤسسة عامة متعددة النشاطات ، آلت إليها أموال أقرباء الشاه السابق و المقربين إلى نظامه .

٤) تحية توديع ، خاصة : المؤقت .

٥) منطقة في شمالي طهران حسنة المناخ .

٦) المقصود منظمة مجاهدي الشعب ، المعارضة المسلحة ، (مجاهدي خلق) .

٧) القصر الصيفي للشاه ، و يقع في شمالي طهران .

٨) مختصر : مشهدي ، أي زائر مشهد ، وهي كلمة تقترب في احتوائها على احترام المخاطَب من كلمة « حاج » .

٩) شريط يحيط بحوض الماء في البيت يستعمل لغسل الأرجل و لفائف الأطفال خا رج الحوض منعاً لتنجسه .

١٠) صيغة احترام ، يتركزاستعمالها في الأوساط الشعبية .

١١) = لا أعترف بأي فرق بينهما ، أمتطيهما كلتيهما لا ، أعترف ببكورة أختك !

١٢) سبق أن مر بنا المقصود بهذه التسمية .

١٣) وحدة العملة الأساسية . كان الخمسون منها في وقت أحداث الرواية المستعاد - في الفلاش باك - يساوي دولاراً .

١٤) مطربة مقهى اشتهرت في العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي .

١٥) جزء من أغنية فتوات كانت معروفة في طهران العقد الخامس الماضي .

١٦) اليوم السابع للوفاة ، ويحتفل به عادة .

١٧) مقام في جنوبي طهران يضم مقبرة عامة .

١٨) من مناطق ومحلات جنوبي طهران ، الشعبية .

١٩) نحو ربع اللتر ، و هو أصغر وحدة لبيع الخمر .

٢٠) منطقة تقع شمالي طهران ، تطورت لتصير واحدة من أحيائها الراقية .

٢١) وحدة نقد ألغيت منذ ثلاثينيات القرن الماضي و لكن اسمها بقي يطلق على العشرة الريالات . في الزمن الثاني للرواية كان هذا الثمن يساوي نحو ثلاثة آلاف دولار .

٢٢) = شعبان عديم المخ ، و هو من فتوات طهران الذين ساهموا في إسقاط حكومة الدكتور محمد مصدق ، فاستحق تقدير الشاه الذي منحه وساماً! ثم أوصله إلى مجلس النواب! و يلاحظ أن أهل طهران يلفظون الألف في الأسماء واواً .

٢٣) موسم الحر الشديد .

٢٤) منطقة بساتين حولت بعد هذا الوقت إلى منطقة سكنية عامرة .
٢٥) منديل حرير ذو مربعات ، أحسنه شُغل « يزد » ، كان الفتوات يحملونه ملفوفاً على كف اليد مبروماً إلى أعلى .
٢٦) كما وشم الصدر والقبعة و المنديل اليزدي ، هي جميعاً من لوازم الفتونة!
٢٧) حذاء يحاك وجهه من حرير أوقطن ، و يصنع نعل الجيد منه من جلد مدبوغ نباتياً ،و العادي من إطارات السيارات المستهلكة .
٢٨) نوع من الحلويات .
٢٩) « كاسة » وسيلة تدخين الأفيون .
٣٠) وسيلة تدخين الأفيون ، وهي غليون ضخم مستقيم .
٣١) الإشارة هنا إلى محلة مسيجة – كما القلعة –في وسط طهران ، كانت مجمعاً لمباغي المدينة ، ولكنها كانت تسمى في الواقع« شهر نو » أي : « المدينة الجديدة »
٣٢) يصنع الجيد منها من خشب الأبنوس ، الذي تحفر نقاط على وجهه و تعبأ بالفضة المذابة .
٣٣) كناية عن الخذلان ، فهكذا يفعل الكلب المهزوم .
٣٤) = ماما ، أماه .
٣٥) منديل رأس مربع ، كبير المساحة ، أسود عادةً .
٣٦) إشارة إلى البطل شبه الأسطوري الإيراني .
٣٧) سكَّر مطبوخ و معدّ على هيئة أقراص ، يستعملونه بدلاً من كتل القند أحياناً لتحلية الشاي .
٣٨) شارع في وسط طهران المركزية ، هو منفذ تصريف الأدوية النادرة و الوسائل الطبية .
٣٩) = الفتوة الشهم .
٤٠) مخفف ومرخم« فاطمة » .
٤١) = رأى أمامه المجهول .
٤٢) هو مجفَّف الماء المتبقي من الحليب بعد تحضير الجبن .
٤٣) = سُجن .
٤٤) بساط قصير الزئبر ، ينقش عادة نقوشاً هندسية .
٤٥) نسبة الى مدينة – محافظة كرمانشاه الواقعة غربي إيران ، على الحدود مع العراق .
٤٦) كناية بمعنى غسلت يدها منه ، أو : نسيته .
٤٧) كباب بالرز ، و هو الطبق التقليدي الإيراني .
٤٨) المقصود : زوجته الصيغية أو بعقد الصيغة ، أي زوجته المؤقتة .
٤٩) آلة موسيقية وترية .
٥٠) كناية بمعنى تليينها أو إخضاعها .
٥١) = ينبغي الصبر لها وعليها .
٥٢) بطل فيلم سينمائي بالاسم نفسه يُهلك بالمطوى ثلاثة رجال كانوا قد اعتدوا على عفة أخته .

٥٢) فتح مؤخرات الكيوات كناية عن مشي أصحابها السريع أو حاجتهم إلى سرعة الحركة .

٥٤) هي الـ « زور خانه » ، أي - حرفيا - بيت القوة ، و هو النادي الرياضي التقليدي الإيراني .

٥٥) هنا ، هو مدير اللعب ، الذي ينقر على الدف و يقرأ في ما يشبه الحداء، فيحرك اللاعبين كلاً إلى اللعبة التي يمارسها .

٥٦) مستديرة ، منخفضة عن مستوى أرضية بقية الزور خانه ،يلعب عليها الرياضيون ألعابهم .

٥٧) إحدى وسائل اللعب التقليدية ، وهي لوح خشب ، أقرب إلى الباب شكلاً ، فيه سلسلة حديد يرفع منها ويدار باليد ذات الشمال واليمين .

٥٨) وسيلة لعب أخرى هي خشبتان ، ثقيلتان عادة ، على هيئة مخروطين غير مدببين ، تمارس بهما ألعاب مختلفة .

٥٩) ثقل يستعمل للتمرن على تحمل القوة .

٦٠) لوح خشب يقوم على مرتفعين في طرفيه ، يستعمل للتمرن على تحمل الذراعين لثقل وزن الجسد .

٦١) لاعب الوسط وقائد اللاعبين .

٦٢) هنا ، تنبيه للاستعداد .

٦٣) جزء من حركات لاعب الوسط .

٦٤) مختصر : آقا = سيد ، تقال محبة أكثر منها احتراماً ، و لعل خير مقابل لها يكون :سي .

٦٥)كان طيب واحداً من هؤلاء ، إلا أنه بعد مدة تاب و ذهب إلى الحج ، و أخذ يلتزم ميادين الفواكه والخضر حتى أثرى منها ، وفي سنة ١٩٦٣ شارك في الاحتجاجات على اعتقال الخميني ، التي ضربتها قوات الأمن بالرصاص فقتل ، و صار من أوائل شهداء الثورة الإسلامية .

مع أن الكاتب لم يذكر اسمه كاملاً ، إلا أن الرقيب لم يوافق على ذكره في هذا السياق ، فاضطر الكاتب إلى تغيير الاسم .

٦٦) جمع سير ، وهو وحدة وزن تساوي ٧٥ غراماً ، توسع استعمالها فشمل العرق خصوصاً من المسكرات . والخمسة أسيار في هذا السياق تعادل نحو ربع اللتر .

٦٧) هنا تلاعب لفظي : فـ (هار) الفارسية تعني مسعور ، و (من) الإنكليزية تعني الرجل ، وهكذا فقد صار الاسم عند المتكلم مركّباً : الرجل المسعور .

٦٨) من علائم مظهر الفتوّة ارتداء بدلة سوداء و قميص أبيض . و لا يلبس الفتوة السترة في الصيف بل يضعها على كتفيه ، و كذلك لا يلبس الحذاء كالحذاء وإنما كما لو كان صندلاً .

٦٩) جعفر شريف ، من ساسة العهد الملكي في إيران . صار رئيساً للوزراء أكثر من مرة .

٧٠) أهم ملوك السلسلة القاجارية ، ملك و حكم النصف الثاني من القرن التاسع عشر كله تقريباً . على الرغم من تعلمه على يد إصلاحي كبير ، هو أمير كبير ، إلا أنه صار نموذجا للحاكم الوحشي . و لهذا ، أو على الرغم من هذا ، مات مقتولا على يد أحد تلاميذ جمال الدين الأفغاني .

٧١) ضابط الخيّالة الذي استولى على العرش بانقلاب سنة ١٩٢٠- ١٩٢١ ، و لقّب نفسه (پهلوي) .

٧٢) المقابل الفارسي لكلمة (ولّ) يعني ولّى وضاع في الوقت نفسه ، و من هنا فقد أطاع السامع الأمر و نفّذه : ضيّع نفسه!

٧٣) كانت تلك ، مع بعض المبالغة ،حال الدكتور محمد مصدق ، رئيس الوزراء ، الذي كان يدير البلاد من سرير مرضه .

٧٤) التقديم بكلتا اليدين ينطوي على احترام بالغ .

٧٥) من أطباق الميسورين : لب جوز في عصارة الرمان المكثفة . و من يحبها حلوة الطعم يضيف إليها السكر .

٧٦) قاتل علي بن أبي طالب ، الخليفة الراشدي الرابع و إمام الشيعة الإمامية الأول .

٧٧) المقاتل في جيش الشام ،الذي احتز رأس الحسين بن علي ، الإمام الثالث .

٧٨) كناية واضحة : يدقق الأمور .

٧٩) كناية عن الدهشة .

٨٠) من نجوم السينما المعروفين قبل الثورة الإسلامية ، و كانوا يمثلون في الأغلب أدوار الفتوات .

٨١) منديل رأس مربع ، واسع المساحة .

٨٢) خبز يخبز في تنور أرضيته مفروشة بالحصى ، يكون كبير الحجم عادة .

٨٣) الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية ، مرقده في مدينة مشهد ، مركز محافظة خراسان .

٨٤) لقب الإمام الرضا ، حيث تقول الحكاية أن غزالاً دخل حماه هربا من صياد ، وأن الصياد تركه عندما رأى ذلك .

٨٥) على اعتبار أن الإمام الرضا مات مسموماً و لهذا فقد مات عطشاناً ، وربما كان المقصود هو الإمام الحسين الذي قُتل قبل أن يشرب الماء في عاشوراء .

٨٦) زائر مشهد .

٨٧) هي « معكرونة » تصنع محلياً باليد .

٨٨)هي غرفة المعيشة في البيت الإيراني التقليدي ، و قد تكون سباعية الأبواب .

٨٩) اسم فيلم مبني على أساس قصة لـ« صادق هدايت » ، و شخصية الفيلم الرئيسة بهذا الاسم .

٩٠) تفالة الأفيون .

٩١)إشارة إلى أحداث وشخصيات فيلم داش آكل .

٩٢) فتوة ، او بلطجي .

٩٣) يغسل الشخص يده ، أو يتوضأ ، ويعلن التوبة فتكون ملزمة له .

٩٤) عقد الزواج!

٩٥) كل لغة أجنبية عند الأميين ، و على رأسهم الفتوات ، هي أرمنية!

٩٦) تقع جنوبي المدينة ، حيث المحلات الشعبية .

٩٧) المدفعية ، وهي واحة أخرى من سوح جنوبي المدينة .

٩٨) الشهر الأخير في السنة من التقويم الفارسي ، يبدأ في العشرين من شباط وينتهي في العشرين من آذار من كل سنة .

٩٩) القصر ، هو في جنوب المدينة أيضاً ، مع أنه كان مقر البلاط الملكي ، و هو الآن مقر رئاسة الجمهورية .

١٠٠) على رغم تكرار اسم رجل الدين هذا في الرواية ، إلا أن الرقيب أصر على حذفه حفاظاً على سمعة رجال الدين!

١٠١) انصرف ، رحل ، و- هنا- بمعنى هرب تحديداً .

١٠٢) تمتد من وسط المدينة إلى شمالها .

١٠٣) مختصر اسم جهاز الأمن الداخلي لحكومة الشاه ، الذي أنشئ في أواخر خمسينيات القرن العشرين بإشراف وتدريب و تجهيز أميركي .

١٠٤) حيث مدفن تختي .

١٠٥) سكين ما بين الخنجر والسيف طولاً ، حادة الطرفين في العادة ، تستعمل أساساً لشج الرؤوس في طقوس عاشوراء .

١٠٦) هي سنة ١٩٦٣ ميلادية .

١٠٧) مخفف أستاذ أو أوسطى .

١٠٨) من شوارع أعلى ، أو شمال ، المدينة ، حيث بيوت الأغنياء .

١٠٩) جماعة سياسية يمينية .

١١٠) زعيم حزب الـ« كادحين » ، وهو الآخر يميني .

١١١) الجماهير ، و هو الحزب الشيوعي المعترف به أممياً ، و الذي كان الحزب الشيوعي الوحيد آنذاك .

١١٢) من محلات طهران القديمة .

١١٣) ميدان يقع في مركز طهران القديمة ، كان يضم مجلس النواب ، الذي تحول الآن إلى مكتبة المجلس .

١١٤) لقبه الكامل هو « قوام السلطنة » ، سياسي مخضرم ، يعتبر رئيس وزراء الأزمات! وهو نفسه جناب الأشرف!

١١٥) حالي .

١١٦) شقيقة الشاه التوأم . و كان مكتبها يدير أعمالها التجارية الشرعية و غير الشرعية .

١١٧) شارع في وسط المدينة ، كان يضم المسارح و النوادي الليلية .

١١٨) نسبة إلى دوگلاس فيربانكس ،ممثل السينما المشهور في أوائل عهد السينما الناطقة .

١١٩) جرى ذلك عند احتلال السوفييت شمال إيران و الإنگليز جنوبها إبان الحرب العالمية الثانية لمنعها من التعاون مع النازي .

١٢٠) المدفعية .

١٢١) تزوج بالصيغة ، تزوج زواجاً مؤقتاً .
١٢٢) ري ضاحية جنوبية لطهران (و فيها قبر الولي عبد العظيم الحسني ، الذي يلقبه العامة بالشاه ، و يسمون المنطقة باسمه) ، و بن هي ما نلقطها نحن ببون : عاصمة ألمانيا الغربية آنذاك .
١٢٣) مختصر مشهدي .
١٢٤) ١٩٧٨ ميلادية .
١٢٥) زقاق متفرع من الشارع نفسه .
١٢٦) هو اسم العائلة المالكة ، و الشارع أطول شوارع طهران إذ يجتاز المدينة من شمالها إلى جنوبها .
١٢٧) هو يوم إعلان « ثورة الشاه و الشعب » البيضاء ، أي إقرار الإصلاحات الاقتصادية و الاجتماعية .
١٢٨) سياسي مشهور ، دامت رئاسته للوزارة أطول من كل سياسي آخر .
١٢٩) وزير بلاط محمد رضا شاه ومستشاره المقرَّب .
١٣٠) أخر ملك من سلسلة القاجاريين .
١٣١) الخبز .
١٣٢) الروح .
١٣٣) المنجم ، المقلع .
١٣٤) الخشب .
١٣٥) هذه من مبالغات أهالي الأطراف على الطهرانيين .
١٣٦) علامة حلويات ، هي اسم معملها .
١٣٧) هي سيارة الركاب الـ « قومية » الإيرانية ، و كانت تصنَّع حسب اتفاقية امتياز مع الشركة المنتجة لسيارات « أوستن » الإنكليزية « تالبوت » .
١٣٨) محافظة في الشمال الغربي من إيران (قسمت الآن إلى شرقية و غربية) ، و تضم أكثرية ساحقة من القومية الآذرية (التركية) و نجاتها المزعومة هي من استيلاء الجمعية القومية التركية ، و هي منظمة ديمقراطية قومية كانت تنادي بالحكم الذاتي ، و اتهمتها السلطة بالعمالة للاتحاد السوفييتي و السعي لضم المحافظة إلى آذربايجان السوفييتية .
١٣٩) ١٩ آب ، وفيه تم إسقاط حكومة الدكتور مصدق بانقلاب عسكري مهد له « كرامت » و أمثاله بمشاركة واسعة من بغايا العاصمة وقواديها!
١٤٠) انظر الهامش ٣ على الصفحة السابقة .
١٤١) مسلسل تلفزيوني هزلي كانت شخصيته الأساسية ريفي شبه أبله .
١٤٢) المقصود إيران الجديدة ، إيران في ظله ، و الاسم مستوحى من كتاب للشاه بالاسم نفسه .
١٤٣) القصرالملكي في پرسيپوليس ،عاصمة المملكة الإخمينية ، قريباً من شيراز .
١٤٤) ١٩٧٨ .

١٤٥) تعرَّض هذا العرض ، الذي قُدِّم في « مهرجان فنون شيراز » سنة ١٩٧٧ لاعتراض المؤسسات الدينية بسبب المشاهد الفاضحة فيه .

١٤٦) متممات أناقة رئيس الوزراء ذاك .

١٤٧) رحمة أومحبة الآريين ، وهو اللقب الذي أختاره الشاه محمد رضا لنفسه .

١٤٨) وعاء يستعمل لطبخ ما يكفي شخصاً واحداً من « ماء اللحم » ، وهو طبق لحم مسلوق مع إلية و حمص و بطاطا ، تهرس وتخلط جميعا لدى التقديم فيثرد في الماء و تؤكل المواد بالماء المنقوع .

١٤٩) = مشكلتها (هي الكلمة الإنكليزية ذاتها) .

١٥٠) مركز محافظة گيلان في شمال إيران .

١٥١) محافظة شمالية أخرى ، تقع على ساحل البحر .

١٥٢) مدينة من أعمال محافظة خراسان الشمالية الشرقية .

١٥٣) يقع ضمن الجناح الشرقي لبازار طهران الكبير .

١٥٤) نسبة إلى كاشان ، وهي محافظة في وسط إيران ، جنوبي مدينة « قم » ، و هي من مراكز صناعة السجاد اليدوي .

١٥٥) محافظة في جنوب شرقي إيران .

١٥٦) أو عبادان ، محافظة - جزيرة في جنوب غربي إيران .

١٥٧) ضاحية جنوب غربي طهران .

١٥٨) محافظة في وسط إيران ، عريقة و شهيرة ، و كانت عاصمة للصفويين ، تتركز فيها صناعة الـ« گز » ، و هو الـ « من و السلوى » .

١٥٩) مدينة عريقة إلى الجنوب من طهران .

١٦٠) مدينة عريقة إلى الجنوب الغربي من طهران ، فيها صناعة قديمة للدباغة .

١٦١) من نواحي محافظة تبريز .

١٦٢) إحدى مدن محافظة كرمان .

١٦٣) مدينة في الشمال الغربي من مشهد ,مركز محافظة خراسان الواقعة في الشمال الشرقي من إيران .

١٦٤) مدينة إلى الجنوب الغربي من طهران ، و هي مركز المحافظة المركزية .

١٦٥) مدينة إلى الجنوب الغربي من « قم »

١٦٦) مدينة إلى الشمال الغربي من طهران .

١٦٧) ضاحية إلى الجنوب الغربي من طهران .

١٦٨) كناية عن اجتراح العجائب أوإتيان الأمور الصعبة .

١٦٩) حفر الروح الكردي كناية عن تحمل المشاق .

١٧٠) محافظة غربي إيران ، على الحدود العراقية .

١٧١) إشارة إلى القوات التي أرسلها الشاه لإخماد ثورة ظفار .

١٧٢) إشارة إلى محاولة اغتيال شاهپور بختيار في العراق .
١٧٣) مدينة عراقية عريقة ، تعرف بمركز دراسة العلوم الدينية فيها .
١٧٤) صلصة الاسفناج ، (السبانخ) .
١٧٥) أسماء محلات مشهورة في قلب طهران .
١٧٦) أسماء محلات مشهورة و قديمة في طهران .
١٧٧) أسماء ميادين قديمة مشهورة في طهران .
١٧٨) المقصود هم «الحرس الإمبراطوري» ، أي حرس الشاه ، وكانوا يعرفون باسم «جاويدان» ، أي الخالدين .
١٧٩) أو قلعه ياسين ، و هي قطعة قماش قليلة العرض طويلة تكتب عليها سورة ياسين ثم تخاط على شكل حلقة يمررون خلالها العازم على السفر .
١٨٠) ٨ أيلول .
١٨١) قتل جيش الشاه في ذلك اليوم الكثير من أبناء الشعب .
١٨٢) يقع في جنوب شرقي المدينة ، حيث أحياء الفقراء .
١٨٣) من بغايا المدينة المشهورات .
١٨٤) من فتوات تلك الأيام المعروفين في طهران .
١٨٥) هي الـ « إمبراطورة » ، زوجة محمد رضا .
١٨٦) مغني تلك الأيام المعروف ، الذي كان يرعش صدره عند تقديم أغانيه .
١٨٧) مغنية كانت تؤدي حركات مبتذلة مع غنائها .
١٨٨) تعني الخان هنا الإقطاعي أو وكيله .
١٨٩) آخر رئيس لوزراء الشاه .
١٩٠) ملعب كان يعد كبيرا وحديثاً في تلك الأيام .
١٩١) رأسمالي مشهور كان يمتلك عدداً من المصانع .
١٩٢) مدينة على بحر الخزر ، من توابع رشت ، أقام فيها بعض أفراد العائلة المالكة كازينو ضمن مشروع سياحي .
١٩٣) كناية عن الوحدة و التفرد .
١٩٤) كناية عن التعجب و الدهشة الفائقين .
١٩٥) المقصود زيارة الأولياء و / أو العتبات المقدسة .
١٩٦) قوة سياسية يسارية إسلامية تؤمن بالعمل المسلح . بعد مدة قصيرة من استقرار الجمهورية الإسلامية انضمت إلى صفوف معارضيها .
١٩٧) نوع من أغطية الرأس و دورة الوجه .
١٩٨) في ضاحية « ري » جنوبي طهران .
١٩٩) حبيبة أمير أرسلان ، يفترض أنها كانت بنت العاهل الرومي بطرس .

٢٠٠) برعمة .

٢٠١) مؤسسة أنشأت بعد الثورة الإسلامية ، يفترض أن يُنتخَب أعضاؤها ، إلا أنهم ، في الواقع ، يعينون تعييناً .

٢٠٢) محلة في شمالي طهران ، حيث دور المرفهين .

٢٠٣) على أساس التقاليد الإيرانية ، يقضي عدد من قريبات العروس ليلة العرس في بيت العريس .

٢٠٤) طبق قوامه لب الجوز المبروش أو المسحوق ، فالمذاب في مركّز عصير الرمان الحامض . يطبخ عادة على الدجاج .

٢٠٥) هي ما تهيئه العوائل لبناتها- كجهاز عرس - منذ ولادتهن ، و يدخل فيها أيضاً ما يجلبه اصدقاؤهم لهن عند الزواج .

٢٠٦) إيذانا بالانصراف ، نوع من توديع .

٢٠٧) مواد نباتية تحرق لطرد العين الحاسدة .

٢٠٨) جمع منّ ، و هو وحدة وزن تعادل ثلاثة كيلوغرامات .

ترصد هذه الرواية جوانب من تحولات المجتمع الإيراني الحديث، وترسم صورة واضحة للمرأة في مواجهة العقلية الذكورية التي تتعامل معها كجارية أو أداة للمتعة.

وتعرض النص الأصلي من هذه الرواية إلى التشويه بمقص الرقابة، لكن النص المترجم هنا مأخوذ عن النص الأصلي دون حذف أو تشويه.